سلسلة الابداع القصصي

حسن بن عثمان

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

عباس يفقد الصّواب

دار الرّياح الأربع للنّشر

حسن بن عثمان حسن بن عثمان

تونس 26/12/1990

عباس
يفقد الصّواب

دار الرياح الأربع للنشر

© جميع الحقوق محفوظة
لدار الرياح الأربع 1986

الى
يحيى الرزقي
أبو السعود الحميدي
سليم دولة
* أصدقائي، كنت أجادلهم بما
أعلم وبما لا أعلم، وأصادم قسوتهم
على بداياتي حتى لكأنني أحسّ
الآن بشيء من الصلابة فيما
أكتب.

جـدل الحـــل والترحـال

بقلم: نور الدين الفلاّح

«متى أُريد بالمزح النفع وبالضَحك الشيء الذي له جُعل الضحك صار المزح جدًا والضحك وقارا»

الجاحظ، كتاب البخلاء

هذا هو العمل القصصيّ الأوّل لحسن بن عثمان، وقد استطاع صاحبه بمهارة متميّزة وصوْغ حكائيّ عربيّ مطابق ومفتوح على شروط المعاصرة أن يجعلنا نعيش مع كلّ صفحة من صفحاته عُرسا ديونزيوسيّا يعبق بشبق الحياة وتطلَق فيه عاليا ضحكات الاستهزاء بكلّ قوى الجمود والموت، كلّ ذلك بنبرة صادقة ولغة عصابيّة متوهّجة دون اغراب زائف ولا تسفّل كريه.

يكوّن المتن للقصصيّ عند بن عثمان وحدة متكاملة رغم تعدّد الحكايات واختلاف الوقائع. وتتجلى هذه الوحدة في النبرة الفكهة التي ينضح بها الأسلوب حتى في أشدّ الحكايات قتامةً. بيد إنّ هذه الفكاهة لا يقصد بها إلى التندّر المجّاني وانّما هي نابعة من الرؤية الكرنفاليّة التي انبنى عليها المتن القصصي.

ويعود فضل اكتشاف البنية الكرنفالية في النصّ الحكائي إلى الناقد الرّوسي باختين. ومن الملفت أنّ المدوّنة القصصيّة العربيّة تعجّ بهذا اللون الحكائي الكرنفالي الذّي يمتزج فيه الجدّ بالهزل والخيال بالحقيقة والشبق بالموت والمدح بالشتيمة والضحك بالدموع. وإنّ كتاب الدكتور محمّد رجب النجّار عن حكايات الشطّار والعيّارين ليقيم الدليل الساطع على ما تزخر به المكتبة العربيّة من حكايات شعبيّة قمينة بالانتظام في مضان الأدب الكرنفالي الذي يتحدّث عنه باختين وحسن بن عثمان هو واحد من هؤلاء المبتكرين الكثر في الوطن العربيّ الذين يحاولون بفطنة وذكاء كبيرين أن يستنبطوا شكلا حكائيّا عربيٌ المنشأ، شعبيّ المنبت، كرنفاليّ المبنى بعيدا كلّ البعد عن استنساخ النموذج الغربيّ وإعادة انتاج النمط التراثي الفائت في الآن نفسه.

وحكاية «اسمك جلغم» مثلا، بسخرية لغتها وطابعها الحواري وجمعها بين الجدّ والهزل والشعر والنثر وميلها إلى الفضح والمكاشفة لأحوال السياسة وطبائع المجتمع، تتحرّك في مدار كرنفاليّ تصطخب فيه أصوات الشخصيّات وتصبح فيه الحكاية فضاء ابداعيّا رحبا تُهزَأ فيه، بحواريّة متهكّمة ودائمة التوتّر، خطب الاغتراب التي تعوق النشاط الليبيدي الحرّ في المجتمع القضيبيّ القامع بيد انّ النظرة النقديّة التي تُسندُ كتابة حسن بن عثمان بعيدة عن نزعة التدمير العدميّة بعدها عن الوعظ والارشاد. وهي بذلك توتّر دائم بين الفكر النّاقد والواقع المستلب يتحوّل معه الأثر إلى نشاط اجتماعي وتصير القراءة مشاركة لهواجس الرّاوي ومعانقة لهواماته.

والحقّ إنّ العالم المرويّ في «عبّاس يفقد الصواب» له خصائص لا مندوحة عن ابراز ملامحها المميّزة. لذلك لا يهمّنا مدى مطابقة هذه المجموعة القصصيّة لفئيّات النمط الكرنفاليّ بقدر ما يهمّنا رصد ايقاعها الخاص الذي لا تكون إلا به. وما النسق الكرنفالي هنا إلاّ مدار عام تستوحي منه أدواتها لتشكّل عالمها المتفرّد.

الوجه والقناع :

إنّ حكايات «عبّاس يفقد الصواب»، بعفويّة السرد فيها، وابتعادها عن التجريد الذهنيّ، وانغراسها في الحدث اليوميّ، وامتصاصها لمرذول الكلام ممّا تلهج به عامة النّاس، تُعيد إلى الذهن ما يتناقله النّاس من أخبار ويتفاكهون به من نوادر في ما عُرف بحلقات الأنس الشعبيّة. فالرّاوي في مجمل هذه القصص هو حاكٍ قبل كلّ شيء ينقل الخبر ولا يعلّق عليه إلاّ بما يجعل الخبر جليّا في الذهن لا يُكدّر صفوه لغو معرفيّ أو استطراد تائه ممّا تعجّ به الروايات الذهنيّة وتضيق به شتّى ضروب القصّ التجريبيّ.

هذا الأسلوب في السرد والإخبار لا مشاحّة في انتسابه العريق للحكاية العربيّة كما جاءت في قصص «ألف ليلة وليلة» و«مقامات الهمذاني» و«بخلاء» الجاحظ في صفائها البكر وقبل أن تخالطها الأساليب الهجينة.

وخلافا لما عرف عن السارد في الرّواية الغربيّة الحديثة عموما من سيطرة مطلقة على اللعبة السرديّة فإنّ الرّاوي في «عبّاس يفقد الصواب» على غرار الحاكي العربيّ القديم لا يستأثر بالرّواية من دون بقيّة الشخصيّات، بل يفسح لهم المجال جميعا للإفصاح عن ذواتهم دونما وصاية.

وقد يصل اجتياح الشخصيّة المركزيّة لفضاء الحكاية أحيانا درجة يتقلّص معها دور الرّاوي. ويتجلّى ذلك مثلا في حكاية «عباس في

حالة سيّئة» التي يمكن اعتبارها، عدا الفاصل الوجيز الذي يظهر فيه الرّاوي، مناجاة داخليّة تساعد عبّاس على بثّ همومه مباشرة إلى القارىء.

إنّ هذا اللون من السرد المباشر الذي يتكرّر أيضا في حكايتيْ «الحافلة ذات العجلات الأربع» و«اكتفي الليلة بالظلام» يتوامم مع ما يستدعيه البوح بهواجس النفس وهمومها من تحرّر الشخصيّة المركزيّة من إسار الرّاوي. بيد أنّ هذا النمط من السرد يعدّ استثناء في المجموعة ولا يشكّل السمة المميّزة للعبة السرديّة بحيث يمكن اعتباره حالة قصوى يبطل فيها دور الرّاوي تماما لعدم لزومه ولما يمكن أن يدخله من ضجيج على صفاء المناجاة الداخليّة. ومهما يكن من أمر فلا يجوز تقييم هذا اللون من السرد بصفة مجتزئة وبمعزل عن النسق السردي العام الذي تنتظم فيه سائر حكايات المجموعة. إنّ المناجاة الداخليّة تظلّ في الواقع لحظة من اللحظات التي تتجاوز فيها الشخصيّة المركزيّة بخاصّة وساطة الرّاوي لتنفتح مباشرة على القارىء. إلاّ أنّ هذا التمسرح السرديّ لا يلغي البتّة الدّور الهام الذي يلعبه الرّاوي في تفجير بؤرة الحكي وتحريرها من هيمنة «أنا» المناجاة الداخلية إنّ سرّ اللعبة السرديّة في «عبّاس يفقد الصواب» يكمن في المواءمة بين السرد المباشر الذي تقوم به عموما الشخصيّة المركزيّة والسرد غير المباشر الذي يتجشّمه الرّاوي، مواءمة تجعل الرّاوي متورّطا في الحكاية معنيّا بما يدور فيها من أحداث. ويتجلّى ذلك في أغلب حكايات المجموعة وبخاصّة في «اسمك جلغم» حيث تلتقي هواجس الرّاوي بهواجس ابراهيم وتتوحّد رؤيتها للأشياء وللآخرين توحّدا يتعذّر معه تحديد خطّ التباين بينهما.

مدن التيه :

وتدور الاحداث المتالية للقصص التي نحن بصددها في فضاء

المدينة المركزية الحديثة حيث تهيمن المؤسسات التكنقراطية مستعملة كل أدوات نفوذها لتسوير المدينة وبسط سيطرتها على كلّ نقطة فيها ليتسنى لها بعد ذلك محاصرة الفضاءات التي لا تقع تحت رقابتها وجبر الأجساد والعقول على انتظام في مشروعها التحديثي.

وبقدر ما تصوّر «عباس يفقد الصواب» تيه المواطن العربي وضياعه في متاهات الفضاء المديني الجديد، تعمل على تأسيس فضاء مغاير مفتوح على الشارع ومتحرّر من هيمنة البنى المركزيّة. ومن الملفت أن معظم أحداث المجموعة تدور في الساحات العامّة والأماكن التي يؤمّها النّاس في أعراسهم ومآتمهم. فـ «اسمك جلفم» مثلا، تبدأ بخروج ابراهيم من الوكالة وتنتهي بعودته إليها. وبين الخروج والعودة تدور جميع أحداث الحكاية في الشارع.

وفي الشارع أيضا تدور معظم أحداث «اكتفى الليلة بالظلام» و«أوّل الصباح الشتائي» و«الحافلة ذات العجلات الأربع». هذه الأهمية التي يكتسيها الشارع في المجموعة تشي بالرمزية العميقة التي تحف به. فالشارع فضاء يتحرّر فيه الجسد وتتسامى فيه الروح لتعانق الكون وتنتشي بمباهجه كما يتبدّى ذلك في «أوّل الصباح الشتائي».

والشارع أيضا فضاء الترحال والتحرّر من إسار التمركز والحلّ. والشارع أخيرا فضاء تنصهر فيه الذات الفرد وتذوب في الجماعة. غير أن الفضاء المديني في هذه المجموعة القصصية له وجه آخر قمعيّ بالأساس يتجلى في هذه المحاصرة التي تحفّ بحياة المواطن فتعوق نشاطه الحرّ بما تفرضه عليه من قيود وحدود. ويظل عبّاس، رغم تقلّبه في أدوار مختلفة، الشخصيّة المركزيّة التي تمثّل المواطن الشعبيّ الضائع في متاهات الفضاء المديني الجديد. فهو في «الحافلة ذات العجلات الأربع» ذلك الموظّف الصغير الذي يروي بلغة مباشرة وجدّ مؤثرة ما يعانيه في حياته اليوميّة من تسلّط رؤسائه فتتشنّج أعصابه ويذهب به السخط إلى حدّ التفكير في التمرّد فيقرّر أن يتعمّد الامتناع

عن دفع معلوم ركوب الحافلة.

وهو في «عبّاس في حالة سيّئة» ذلك العامل المهدّد في قوته، الحائر أمام مصيره الغامض. وهو أيضا في «اكتفي الليلة بالظلام» ذلك الشاب الذي يعييه البحث عن امرأة يخمد معها لظى الشهوة التي تحرقه فيعود إلى بيته ويستعيض عن الحقيقة بالخيال فينحت من نفسه طيفا انثويًا يحاوره في قضايا الجنس. والحكاية، برغم المناخ العجائبيّ الذي تدور فيه تتناول بعمق فلسفيّ القضيّة الجنسيّة في المجتمع الذكوري وتفضح القهر الجنسي الذي ينال الانسان في المدينة الحديثة.

وهو أخيرا* في حكاية «العظام تصفّر لبعضها» ذلك الشاب المترجرج بين ثقافته التقليديّة المتأصلة وانبهاره الشديد بالذهنيّة المتحرّرة التي تسم سلوك الفتاة الشبقيّة التي يريد أن يتزوّجها.

ولعلّ منتهى القهر الذي يتعرّض له المواطن في المدينة الحديثة هو ما وصل إليه عبّاس من بؤس واحباط في حكاية «اسمك جلغم». يفقد عبّاس في هذه الحكاية كل مستلزمات الهويّة. فهو مشكوك في مداركه العقليّة منذ ان أصيب بانهيار عصبيّ. وهو يعيش بلا مأوى ولا عمل عالة على صديقه. وهو أخيرا مسلوب الاسم منذ أن خلع عليه صديقاه تندّرًا اسم جلغم محقّقين بذلك الحلقة الأخيرة في طمس شخصيته ومسخها.

وهكذا يصبح عبّاس / جلغم صورة مطابقة للأصل لهيئة المواطن المقهور في الفضاء المديني الجديد.

ولولا هذا الوجه الكالح الذي تتبدّى به المدينة الحديثة ولولا هذه الهيئة السلبيّة التي تظهر بها الشخصيّة المركزيّة لفقدت هذه القصص قدرتها على ملامسة القضايا المعاشة في المجتمع التاريخي ومعاينتها لمواصفات الاستلاب الذي تتخبّط فيه الشرائح الشعبية.

إنّ الايقاع الخاص الذّي يتميّز به عالم حسن بن عثمان يكمن في

---

* تمت اضافة قصّة «يخرج الحي من الميت» بعد كتابة المقدمة، لذلك فهي لا تتعرض لها.

هذا المزج الطريف والعميق في الآن نفسه بين واقع الاستلاب في المدينة الحديثة وحلم التحرّر من بناها المركزيّة وذلك بالتفتّح على فضاءات رحبة ينفلت فيها الجسد من عقاله ليواصل ترحاله الأبدي...

زمن الكرنفال

وتتجلّ جدليّة الزمان في قصص هذه المجموعة في الصّراع القائم بين الماضي كبنية زمنيّة ثابتة والحاضر كطاقة تغيير وإضافة. ويلعب الحدث دورًا حاسما في تحرير الزمان من هيمنة الماضي واستمرار تأثيره في الحاضر، والحدث هو اكتساح للمساحات المتخشّبة الواقعة تحت نفوذ الماضي. والملفت أنّ الأحداث في «عبّاس يفقد الصواب» تدور في الحاضر وتنطلق منه كمرجع أساسيّ لتفجير طاقات التغيير الذي يحبل بها. ويصبح التاريخ بهذا المعنى سعيا يوميًا من أجل التغيير والاضافة ويفقد موقعه كسلطة ميثولوجيّة قامعة تفوق إرادة الانسان عن الخلق والابتكار.

وإذ ركّزت الملحمة على الماضي كزمن البطولة الخارقة فإن «هذه المجموعة القصصية»، بانغراسها في الحاضر وتأصلها في الفضاء المديني الجديد واستبعادها للبطولات أقرب إلى الرواية منها إلى الملحمة. ويتجلّى البعد الروائي في تفتح النسق الحكائي العربي على الواقع المعاصر مع ما يقتضيه هذا التفتح من تجاوز البنية النمطيّة للحكاية العربيّة القديمة واستنباط بنية أرحب تتسع لاستيعاب الحاضر بكثافته وتعقده.

فان الكاتب قد استطاع وفيما نرى، بتفجيره للنسق الحكائي التقليديّ وتوظيفه للبنية الكرنفالية أن يصوغ عالما روائيًا تعود فيه البطولة الى الجماعة والفرح إلى القلوب ويورق فيه الحلم ويزهر الأمل وتُجهضُ قوى القهر والاستلاب.

سأتـركك تتـذوق
هـذا الطّعـــم

الذي لا يعرفها يحسب أن الفقيد هو ابنها البكر، ليس فقط لأنها من يوم موته وهي تنوح بلوعة، ولا تنبس بكلمة إلا ويداخل صوتها النحيب ومرارة التحسّر، بل لأن خشبة غسل الأموات النظيفة الملساء، ذات اللون الضارب إلى البيوضة، منذ ثلاثة أيام وهي تتكيء على حافة جدار بيتها.

ومن المراسم العريقة في هذه البلدة، أن المغسل، الذي يعتبر في ذمة

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

حافظ بيت الوضوء بالجامع الوحيد هناك، والذي يجيء به بإعانة ابنه ليطهّر عليه الجثة، يبقى مسندا على الحائط الأمامي حذو باب بيت المتوفى لمدة ثلاثة أيام، والمعزّون من أهل البلدة والمعارف، هم في العادة، يسترشدون به كعلامة لدار أولياء الميت.

وخديجة أرملة الهادي الخضّار، المرأة التي تتأرجح في الأربعين سنة، وَيَفِيضُ لحمها عن كل لباس، حتى أنها كانت تبدو مقحمة عنوة في كل ما ترتديه، انشقّ في يوم الولولة الأوّل فستانها البنّي ذو التصاوير السائبة، من نهاية العظمة الفقرية السفلى حتى إبطها الأيسر، شَقٌّ مائل إندفع منه لحم بطني ما لبث أن تورّد من ضغط الجسم المعبّأ، ورغم أن النسوة النائحات اللائي تنزّ عيونهن بدمع لا يشحّ، أشرن عليها بالكفّ عن الخبط والتمايل الأهوج حتى لا يتتابع تمزّق الثوب فتنكشف عوراتها، ويحضر إذ ذاك الشياطين وتغيب عن الجنازة الملائكة، وهذه جناية كريهة في حق روح المتوفى الميّت، فإنها لم تكترث ولم توله التفاتا. وكانت الحال تتطور معها، إذ تطهرت وكأن في مخّها عش دود يتثنّى، لأن هذا اللطخ القاسي يكفيها على رأسها وتلوّيها الثقيل الذي يموّج طيّات بدنها في تلاحق سرابي واضح، بسبب فعل ديدان الجنّ الخبيثة التي تصرع أعتى الأجسام. إنّها كانت في حالة قريبة من الصرع، إذ أن جسدها لم يتصلّب ويتيبّس كما الصرعى، بل ظلّ مطواعا يترجرج مكتنزا مع كل حركة، الشيء الذي نشر عدّة انفلاتات في الفستان البني وجعل تصاويره السائبة تشطر وتتفتت أشكالها، وجعل أيضا، تكوّمات وعماميد لحمية تنبثق في النصف الأعلى لجسدها، تكوّن في تقسيمها التلقائي المتزاحم مجموعة اثداء الواحدة بحجم الراحتين المتقابلتين.

عند هذا الحدّ، انقطعت النساء النائحات عن النواح والولولة، واتجهنَ بألحاظهن المتّقدة احمرارا والتماع دمع، نحو خديجة الهاجرة عنهن في غيبوبة الانفلات العنيف للجسد الذي يصدر عنه صوت يتبين فيه نشيج غليظ أجوف لا آدمي، يشبه، حين تلوي رقبتها القصيرة إلى

الصمت، هوار ثور رفعت للتوّ عن أوداجه النازفة السكين، وتبادلن نظرات الاستهاء الغاضب التي يقصدن بها حثّ إحداهن على زجر وتوبيخ تصرف خديجة المبالغ في رعونته.

«الصبر يا رحمان، يا خديجة انتبهي، إنك قلبت المأتم إلى فضيحة، لي روحك يا هذه، احتشمي.. ليس معقولا ما تفعلينه...» !
«.....» !

«هذا ليس معقولا، ليس معقولا يا ناس، إنها غير مؤدبة في محفل الموت، يا لطيف، لكأنّ المرأة أصيبت في عقلها، يا أم عباس ألا ترين، أنها أدمت جلدها، يا ساتر أستر. تداركي الأمر يا أم عباس، إنها فاقتك وفاقتنا في ابداء الحرقة على المصاب، يا عجبي كأنه من رحمها وليس ابنك.. والله لو زادت على هذا لفعلت جريمة..».

زحفت أم عباس من وسط النساء، وعجيزتها غير المكوّرة لم ترتفع عن الحصيرة المفروشة، في المساحة القبلية لبهو الدار، حتى التصقت بخديجة كأنها تضمّها، وتحلق النسوة حول المرأتين من غير أن يستعملن أقدامهن في التنقل. ثم حاولن مجتمعات شدّ يدي خديجة وتهدئتها، واختلطت الأصوات بالحركات، وعلا الضجيج في الدار.

فجأة، تهبّ خديجة مقتلعة نفسها من بينهن، وتعفس هكذا دون بصر، وتدور في البهو لولبيا، منكوشة الشعر، متفتقة اللباس، ثم ترفض بوزنها الثقيل صوب الباب الخارجي.

«يا إلاهي الرحمة.. لقد سكنها ابليس.. الرحمة...».

للحظة يخيّم الذهول، وتُشلّ حركات النسوة، كأنهنّ مصعوقات. فاغرات الشفاه، الأعين سائحة في محاجرها ببطء، وقع قدمي خديجة القويتين مضغوط في الأسماع... يتلو هذا الهبوط الآنـــي للحس والحركة، نهوض متسارع للنسوة، عند سماعهن جلبة شيء يكركر على أرضية الممر الترابي الذي ينهج طولا، في ضيق، مباعدا بين البيوت المتقابلة، وتدافعن متراصّات نحو الباب الخارجي المشرع.. ترتسم

البهتة على وجوههن حين وُجدن زمرة ملتفّة متحاكة تشرئب منها الأعناق مادة الرؤوس كالأوزّ المفجوع، خارج الدار، غاصّا بهن آخر الممرّ، وقد ثبتن في مكانهن وهن يتشوفن إلى خديجة تجرّ المغسل الضارب لونه إلى البيوضة، منحنية عليه قليلا، تمسكه من طرفه الدائري، وهو واقف على حدّ ضلعه المستطيل، وتمشي به القهقري. . . تابعن بأعينهن الجرّ، وهن جامدات، حتى بلغت به الى بيتها الذي يفصله عن دار أم عباس ثلاثة أبواب، ودفعت به إلى الداخل، وحين لحقن بها مهرولات بلا وعي، لقينها طرحت في حينها أرضا، أمام عتبة غرفتها الوحيدة، وقد اعتلاها المغسل، لتفرد ذراعيها فوقه في كبس وعناق. . وكان وجهها تحت طرفه الدائري المتصف الذي يسبل رأس الميّت عنده حين غسله، وكانت طربقات محمومة لشفتيها على الخشبة في موضع الرأس.

- «إنها تبوس المغسل. . إنها تبوس المغسل. .».

هكذا صرخت النسوة مذعورات مذهولات بصوت واحد متكرّر، وبحركة جماعية انكببن عليها يخلصن المغسل من بين يديها اللتين استحالتا إلى كماشة حديد، وقد قاومتهن بشراسة وعنف وهي تتمرّغ تحت الخشبة، وصوتها الصائح اللاهث يستغيث :

* «اتركنني يا بنات الكلب، إن بقية روح عبّاس تتنفس عندي رائحة الأنثى، الرائحة التي أشتاقها ولم يعرفها وهو حيّ، سأعطيها لآثاره على هذا المغسل. . . قُصِفَ شبابه ولم يذق طعم امرأة في حياته. . ابتعدن عنّي. . أتركنني معه. . لا تنتزعنه من فوقي. . اتركنني أريح الوَلد في قبره. .».

* * * * *

الرجال وهم عائدون متباطئين خشّعا حزانى من المقبرة، تناهى إلى أسماعهم اللغط الحاد-العالي المنبعث من بيوت الحومة، وقد استطاعوا أن يتبيّنوا فيه أصوات نسائهم حين يَكنّ في حالة شجار وعراك، خلافا

لما يجب أن يكون عليه الصوت في مثل هذا الظرف من النحيب والبكاء، وهم يدركون كذلك أن ميّتهم غير عادي، وربّما يحدث أمر ما، لذلك فإن جنازته كانت غاية في الضخامة والكثرة، حيث تجمع فيها كل أهالي البلدة، بما فيهم الأعوان السبعة لمركز الأمن المحلي ورئيسهم، وزغردت النساء النائحات عند خروج نعشه، وهتف الرجال بأصواتهم المهيبة الجهورية وهم يشيعونه إلى مثواه : «رحمان يا رحمان هذا عبدك»، إذ أن الميت كان أعزب في عنفوان صحّته، عندما غادرهم إلى العاصمة باحثا عن شغل. وفي صباح اليوم السابع لذهابه، عندما باشر عديد الرجال في المقهى الوحيد للبلدة لعبة الورق والديمينو والمزاح الفاحش، أتت سيارة عسكرية خضراء غامقة، يستقلها أربعة من رجال الشرطة بأزياء غير معهودة، وخوذات لونها، في الظلّ، رماديّ فاحم، ولم يتجهوا إلى مركز الأمن كما هي عادة البعثات الرسمية والناس الغرباء، وإنما سألوا في المقهى عن أبي عبّاس.. وحين لقوه أركبوه معهم السيارة في هدوء ولياقة متوترة، وذهبوا...

عندما أرجعوه في المساء كانت حالته لا تسرّ، بل تبعث على الريبة، فالرجل أصفر الملمح كالح، يلتفت إلى جنبيه كالمخطوف، وقال لجيرانه القلقين، منذ ذهابه، بهمس مرتجف، أن ابنه عباس ثقبت بطنه برصاصة أعوان النظام العام، وقد حملته الحكومة إلى المستشفى الجهوي الكبير بالولاية لتعالجه، وهو لم يتمكّن من الحديث معه لأنه كان مُغْميًا عليه منذ أصيب، وقد تكلّم مع أعوان الحكومة، فأعلموه أن المواطن عبّاس الذي هو ابنه، شارك في مظاهرة طلابية للمطالبة بتكوين اتحاد طلابي، فقال لهم إن عبّاس يفكّ بالكاد حروف اسمه، فأعلموه أنه كان يتزعم فصيلا طلابيا ويقذف أعوان النظام العام بالحجارة ويهتف بالشعارات ضد الحكومة. والأعوان دفاعا عن النفس أطلقوا النار، ولم يصيبوا منه مقتلا، لذلك فليطمئن، فهم يسهرون على سلامة أمن الجميع.. وأنهى أبو عبّاس كلامه ببكاء جليل صامت.

* * * *

عند الصباح الباكر، والشمس الشمالية التي تبزغ دافئة وأليفة، وما تلبث، في وقت قصير، أن تقترب من سطوح الديار، وتستنثر نفسها الناري الجامد، كانت مجموعة من النساء في الممرّ الضيق المفضي إلى دار أبي عبّاس، يتعثّرن في سفاسرهن البيضاء العتيقة، ورؤوسهن منخفضة في خَفَرٍ، وهن يختلسن الوطء مسرعات، مقبلات نحو الكميونة الصفراء الرابضة على ناصية الممرّ، التي تطوّع بها أحد الأهالي لحمل الزوّار المقرّبين من عائلة أبي عباس لعيادة الإبن في المستشفى الكبير بالولاية.

وخديجة حين التحقت بالرّكب وهي تعرج بقفة الزيارة، لم تجد لها مكانا، فالكميونة غصّت بالرجال والنساء، ولأن المرأة ثخينة ممتلئة، فقد امتنع السائق عن حشرها بين الجمع، متعللا بمحدودية حمولة الكميونة وخوفه من الحاكم الفاتح عيونه عليهم هذه الأيام، فشتمت خديجة السائق والحاكم ولعنتهما جهرا، وقد كبّر هدوء الصباح صوتها فتهادى في البلدة ولم يخدش سمع أحد.

لم يثنها عن الذهاب انطلاق الكميونة بدونها، واستطاعت أن تتدبر الأمر مع سماسرة المواشي الرّيفيين، الذين يسلكون، مرّتين في الأسبوع، الشارع المسفلت بالبلدة، في طريقهم إلى سوق الولاية.

وقد أركبوا خديجة مع البقر في العربة المكشوفة لشاحنتهم اللوري المهترئة الوسخة، بعدما حاولوا ممازحتها بسفالة، وعرفوا أن مزاجها حاد وسيء، فقد كانت مقتضبة الكلام، منزعجة ومهمومة، ومستغرقة في حالة شرود عجيبة. إذ أن خبر إصابة عباس طيّر لبّها، وجعلها مرتبكة وقلبها يوسوس لها بخواطر سوداء خبيثة، فالولد قد كبر أمام عينيها، وكانت ترقب نموّ أعضائه فصلا بفصل، إلى أن نبت الشعر الأكحل على صدره العريض. والآن ها هي خائفة أن يقضي نحبه دون أن يتمتع بشبابه الرجولي الفتي. لقد كانت في الأشهر الأخيرة تدغدها

الفرحة حين يأتي إلى بيتها، ويقرفص في الظلّ قبالتها، تاركا ظهره يلامس الحائط. ومجيئه إليها يعتبر في نظر الآخرين عاديا، لأن الجميع يعرفون أنها أرملة وحيدة وشريفة، رغم ما يبدو أحيانا من نزق في سلوكها، ويعرفون أن عباس بمثابة ابنها ومؤنسها البريء. فقد كان وهو صغير يمضي معظم وقته عندها، وهي ترعى عن كثب سني عمره بودّ وعاطفة أمومة ساخنة، إلى أن تخطّى العشرين وأصبح يقرفص كالرجال. وتحسّ هي برجولته في هيكله المكتمل الفاخر، ونظراته المشبوبة الثاقبة، التي أحسّت بوهجها الجريء أكثر من مرّة وهي تجوس بحذر في مواطن مخجلة من جسدها. وتعودت عليها واستمرأتها، وأصبحت تنتشي لها وتطلبها. ما أمضى نظرات الرجولة الأولى المترددة وأحرّها، فهي تجعل احساسات خفية مبهمة في نفسها، كانت تحسبها اختفت إلى الأبد منذ موت زوجها، تنفعل وترتعش داخلها، وكانت تلعن في خلوتها تلك النوازع الشيطانية الآثمة، التي سيطرت عليها وباتت تؤرقها وتبلبل ذهنها منذ رجولة عبّاس.

كان عليها في هذا الظهر الحامي، أن تستقل تاكسي بعد أن أوصلتها الشاحنة إلى سوق المواشي على مشارف الولاية، لتلحق بجماعة الزوّار قبل أن يتمّوا زيارة عباس، لكنها حين بلغت المستشفى أخبرتها الممرضة أن زيارة عباس ممنوعة، لأنه في غرفة الانعاش فاقد الوعي، ومن المرتقب أن تتحسن حالته غدا، ويوضع مع المرضى العاديين. والذين جاؤوا قبلها منعوا لهذا السبب. زد على هذا أن اثنين من الأمن يقومان على مراقبة زوّاره وتطورات وضعه الصحّي.

لم تفهم خديجة هذا الكلام، وأصرّت على رؤية عبّاس حتى لو كانت قوات الحاكم كلّها في اعتراضها، فلا بدّ أن تراه كلّفها ذلك حياتها. وبفعل صوت الصراخ والضجة اقترب منها عون أمن مدنيّ اللباس ووسيم، وبدأ يتلطّف معها ويجاذبها الحديث، ويسألها بتهذب ونعومة عن البلدة وعن سعر الدجاج وعن عائلة عباس وعن سيرة عباس

وعنها، أسئلة متفرقة مفتعلة، ثم مدّ يده إلى قفّة الزيارة وسحبها وفي كفّه بيضتان مطبوختان قشّرهما وأكل. ثم كرّر العملية إلى أن أتى على أهم ما في القفّة... وبعدها ربّت على كتفي خديجة وقال لها أنه سيتصرّف في أمر رؤيتها عباس، شرط أن تكون رؤية قصيرة لا تسبب له مشاكل.

حين رأت عباس وهو ملقى على الفراش الأبيض ومغطّى باللحاف الأبيض، وخيوط المِصلِ تتدلّى من فوق إلى ذراعيه وأنفه ووجهه، وهو مسبل جفنيه، ككعبة الليمون المعصورة، أيقنت أنه سيموت، فجثت على ركبتيها، وصدرها على السرير، وهتفت بفزع: عبّاس أيها الغالي... ما بك يا كبدي ؟؟

على الصوت الملتاع انفتحت العينان الذابلتان بلونهما الممّحي، ومالتا في انهاك ناحيتها... وتملصت بعسر كلمات مخنوقة من بين شفتيه الجافتين المشققتين:

* «ع السـلامة
أين والداي..؟
وحدك أتيت يا خديجة.

إنني أموت.. لقد ضربوني بالرصاص في الشارع ولم أفعل لهم شيئا...

لست خائفا من الموت يا خديجة... لكنني شديد الحزن.. يعزّ عليّ أن أغادر هذه الحياة دون أن أتذوق طعم المرأة...

قالت خديجة بصوت باك وسريع:

ـ لا تخف يا عبّاس، ستنجو من الموت... وسأتركك تتذوق هذا الطعم...».

السلطـــان

* 1 *

قطع المائة مليم بكثرة
أوراق نصف الدينار
أوراق الدينار
ورقة الخمس دينارات أحيانا
ورقة العشرة دينارات، نادرا ما يلوّح بها الطّبال مبرزا اياها، شاطحا

ومثيرا للتحدي والمزايدة. ويغنّي ويطيل... تزغرد النسوة الملتحفات الملصقات مؤخراتهن لحائط الدار المواجه، والملتفّات على بعضهن، خوف القضبان الطائشة. ومن الحاضرين راقصون مع الطبال في حلبة متحركة ترسمها الاقدام البشرية المتراصة، تضيقها وتوسعها بحدود الحماس. تدوم الاغنية والرقصة حسب قيمة المبلغ المعطى، وتنهى بدورة الطبال على ساق، مفردا يديه عاليا، اشارة لزميليه في الجوقة. طبّال ونافخ مزود، بالتوقف، وللجمع بالاصغاء:

هذه من عند محمد بن محمد بن محمد، قال على رأس عائلة بن محمد وعلى رأس عائلتي العرس، وعلى رأس المحتفلات والمزغردات، وعلى رأس السلطان فرّاك الرمّان...

زغرودة النساء اللاحقة، تفخّم وتمطط بقدر شهرة ووجاهة الاسم المهتوف. واذا انعدمت الشهرة والوجاهة ومعرفتهن للاسم، فهن يزغردن لطبيعة دورهن ولاجل تحية السلطان، وزغردتهن في هذه الليلة الرابعة والأخيرة لحناء العروسة، تسمع مضخمة مجمعة حماسية ومنبئة بان العرس شارف الاختتام... غدا يدخل السلطان على عروسته ليعريها ويشعل الشمع. ليفضّها وينشر دم بكارتها على رؤوس الملأ. ويدفع الزغرودة الأخيرة من حلوق النساء مستثارة مولولة، فرحة ومشفقة معا.

وعباس كان غير مهندم، ملتحيا، ومتواريا مع صحب له في آخر الحفل المقام في الهواء الطلق أمام منزل أهل عروسته، ويبدو مهتاجا، متهيبا خائفا، مغتبطا.. كل هذه المشاعر الهائلة الممتزجة بفعل اسم السلطان، الذي عوّض اسمه طيلة هذه الليالي الأربع، وما سيستتبع ذلك في الليلة القادمة من مهمة لم يعهدها ولم يجرّبها، تجعل خياله قاصرا عن تصورها وتبعث الارتجاف في ركبتيه... ركبتاه اللتان ستكونان في الليلة المقبلة متصلبتين بين ساقي عروسته المرفوعتين.. ثم كيف سيفعل ؟! نعم. كيف سيفعل عند ذلك ؟ ان الطريقة التي عرضها له

وزيره (*) لم يستوعبها بحذافيرها. وذهنه يخلط بين مقدماتها وصلبها ونهايتها... سيعريها ثم يلاطفها ويقبلها.

أم سيقسو عليها أولا

يقبلها اولا

يلاطفها أولا

أم يحدثها اولا

يعزيها اولا

يحاملها أولا

أم يصافحها أولا

أم يخلع جلوتها اولا

يطرحها أرضا أم على السرير؟! كيف قال الوزير؟.. غشاء العذرية في رهافة ورقة السيكارة بدكّة واحدة يفضّ. شرط أن يكون فرجها في وضع يقابل القضيب، وذلك برفع رجليها فوق كتفي... ابدأ بالدلك لاخاتلها وأثير شهوتها. لكن لا يمكنني ذلك! ستعوقني رجلاها عن الحركة وحسن التصرف... رجلاها فوق كتفي وجذعي منحن. هذا وضع معقد وشاق! رجلاها فوق كتفي تحيطاني بعنقي، وضع مخنق لا يجوز... أنا، ككل مخلوقات الله، عليّ أن أقع عليها لا أن احملها فوقي! قال الوزير: اذن ضع تحت مؤخرتها مخدة يابسة، وانحشر بين الساقين. ما دمت عاجزا عن رفع رجليها... فقط تشجع وكن رجلا وخذها بسطوة. العملية يلزمها فحولة وعتوّ... ! أنا ليلة دخلتي كسّرت إمرأتي من الوثبة الأولى، وفعلت بعدها خمس مرّات في خيط واحد، حتى انني عندما طلعت بالقمجة حمراء على الأهل خافوا من كثرة الدماء تبللها. وبقيت امرأتي لمدة عشر أيام تتفاحج في مشيتها ولا تلم ساقيها على بعضيهما.

وقال الوزير:

ـ أراك مضطربا يا سلطان... ما الذي يشغل بالك؟

ـ لاشيء. . . (وأضاف عبّاس بعد صمت واضطراب) أنا مشغول بالكيفية المناسبة لانجاح حفلة العرس غدا، حتى لا تفسد من طرف الصبية العابثين أو السكارى. . . أفكر أيضا في طريقة ترضي الناس والمعارف والمدعوين عند توزيع المشروبات والمآكل. . . وكذلك فيمن يحضر كاتب العدل، وفيمن يرافق نقل جهاز العروسة الى داري. . . ثم فيمن سيرافقني الى الحمّام ويحجز دوري لدى الحلاق. . .

ـ أنت على صواب يا سلطان، لكن لا يليق بسلطانك أن تنشغل بهذه السفاسف! انتبه الى لياقتك وراحتك فحسب. وسأتولى أنا الأمور الأخرى. . إنني سأشكل حاشية وزراء يعملون على انجاح عرسك، وسأعيّن كل واحد منهم لمهمة. . . وزير للأمن العام، وزير للتجهيز، وآخر للمؤونة. . وهكذا. . . وعليك أن تصادق على هذا الاجراء، وتعتمد كل من أقدمه للمهمة الموكولة اليه.

* 2 *

تلك الحادثة النحس وذلك الشغب الكبير لم يشهدهما عرس من قبل. كان عبّاس في ذلك المساء الصيفي الرائق، حليق اللحية وشعر الراس، معطّرا، مشرقا، باسما، ساكنا، تحفّ به هيبة السلاطين، وقد تزيّي بكسوة سوداء جديدة، يطلّ من طرف جيبها العالي منديل أبيض. يجلس في صدارة الطاولات الأربع المصفوفة. أمامه مشموم فلّ دائرته في حجم الشمس ينتصب داخل عنق زجاجة خمر فارغة. ومحاطا بالأكثر أناقة فالأنيق فما دونه من المحتفلين والمدعوين. على يمينه وزيره الأول يقوم بتفقد هيئته السلطانية باستمرار، ويهمس اليه بين الفينة والاخرى. ساحة الدار الواسعة مضاءة بصورة مفرطة ومبهجة. هناك من يرقص. هناك من يغني. هناك الذين يتنادمون بخلسة. هناك من يرمي البخور في المجمرة. هناك الأطفال يتسلقون الحيطان. وهناك من هم فوق السطوح. هناك الصبيان والفتيان متجمهرين، وقوفا، تفيض لمّتهم عندما توقّع الدربوكة بحدّة وتهييج. فيدفعهم وزير الأمن زاجرا

وشاهرا بندقية صيده بطريقة بهلوانية، ومطلقا عيارا ناريا في الهواء. . . تتلاحق على اثره الطلقات من أرجاء الحفل تباعا. . . ثمانية رجال يحملون البنادق ويزخّون البارود. . . طق. . . طق. . . طق طق طق. . . تعبيرا عن الفرح وفخامة العرس.

في غمرة نشوة المحتفلين وزهوهم، التقطت أذنا وزير الأمن أزيز محرّك سيارة خارج الدّار، فنطّ الى الخارج مستنفرا ومشهرا بندقية الصيد التي يحملها. . . وهذه الصفات هي التي رشحته لدور حماية أمن العرس، وهي التي بعثت الهيبة والخشية في قلوب المغرمين بإثارة المشاكل والعراك. ولقد كان في غاية السعادة بصفة وزير الأمن الذي خلعت عليه معتمدة من السلطان، واستمر يتفانى في النشاط والحزم والتدخل في الشؤون الشخصية للحاضرين، كأن يمنع اشعال السيكارة من عقب سيكارة أخرى، أو إطفائها على الأرض، أو السعال، أو البصاق، أو كثرة الالتفات ناحية السلطان، أو التحديق فيه، أو غير ذلك من الاجراءات. . .

كانت سيارة أندروفر خضراء غامقة يركبها عون حرس وضابط برتبة رئيس مركز قد أُسْكِتَ أزيز محركها، وَرَسَتْ في منعرج حذو ظهر الدار.

كان الحَرَسَانِ يقومان بدورية تفقد في المنطقة القروية حين وصلهما صوت البارود وَرَأَيَا، عن بعد، رشّهُ المنطلق في الفضاء، فتبعا الصدى المميز للصوت حتى وصلا. . .

وهُمَا يترجلان عن السيارة أبصرا الشَبَحَ الضخم في الظلام يحرّك ما يشبه العصا، فأمر الضابط مرؤوسه ان يشعل ضوء السيارة. وكانت العصا بندقية مصوبة نحوهما، فتقهقرا مقرّبين ظهريهما الى جنب السيارة. . . وبصوت غليظ مستهتر فيه ما يشبه الاحتقار، كأنه موجه الى من نتفوق عليهم ولا نبالي بشأنهم، قال وزير الأمن للعونين :

ـ تفضلا. . . ماذا تريدان ؟!
ـ لماذا تشهر علينا البندقية !. ما الذي يقع في هذه الدّار ؟!
ـ حفل !.
ـ سنرى الأمر. ! تنحّ لنرى !
ـ ماذا ستريان ؟! هل انتما مدعوان ؟
ـ ألا ترى اننا من حرّاس الأمن !
ـ وانتما الا تعرفان انني سميت وزير الأمن !!

يضحكان ويمدّ الضابط يده لتنحيته عن طريقه، لكنه يتسمّر وتأخذ سحنته ملمحا جديًا ويقول :

ـ لن تدخلا الا بدعوة. . . هكذا الأوامر !
ـ وكيف نتحصل الآن على دعوة ؟
ـ من وزير المراسم أو الوزير الأول.
ـ وهناك أيضا وزير مراسم ووزير أول. . . هذا منتهى العجب !
ـ نعم ! واذا لم يعجبكما، فهناك أيضا وزير تجهيز ووزير داخلية ووزير مؤونة وهناك السلطان، ولن تدخلا الدار إلاّ بدعوة.
ـ مؤامرة !! اذن فقد تمّ تشكيل حكومة داخل الدار ؟؟!
ـ اعتبر الامر كذلك. . ولن تطأ الدّار الا على جثّتي (وشدّ على الزناد وتراجع متحفزا خطوتين الى الوراء).

* 3 *

وقفُوا صفًا دائريا، يتوسطه السلطان وإمام المسجد وكاتب العدل وأبو العريس وأبو العروس. خلف عبّاس بالتحديد كان باب بيته منفرجا لكي ينسلّ بعد لحظات بسهولة الى الداخل، حيث تنتظر العروسة في جلوتها وعلى وجهها وشاح أبيض مخرّم من الحرير. هدأ الهرج. وتوقف العزف والرقص. انها لحظة حاسمة تثير في النفس انفعالات لا حدود لها لدى الجميع. . . بسط الحاضرون أيديهم لقراءة فاتحة الكتاب، بعد أن نادى كاتب العدل : «الفاتحة يا مسلمين». . ولم

ينته من التعوّذ والبسملة، والناس يرددون بعده، حتى تناهى الى أسماعهم هدير المحركات وعلوّ ضجة في الخارج... لم يستوعبوا ما سمعوا حتى تطوّق صفّهم بصفّ من رجال مسلحين، حرّاس وأعوان بوليس، شاهرين مسدساتهم ورشاشاتهم..

ـ أين الذين يزعمون انهم وزراء وأين المسمى سلطانهم ؟

ـ أين الحكومة السرية يا كلاب ؟!

(*) جرت العادة في الأعراس ان يتخذ العروس الجاهل بالنساء من أحد معارفه وزيرا يكون عارفا بالجنس ليرشده على كيفية ممارسته، هذه العادة ما تزال سارية في القرى والأرياف بتونس.

الكهـل الأخضـر

وقف تجاهي، رجلاه منفرجتان، ويداه مفردتان، كأنه على أهبة الطيران، أو كأنه لاعب جمباز ـ لولا كرشه الصغيرة ـ، وشعّت عيناه بطريقة غريبة،، ثم ضمّ رجليه، وخفض يديه، وخبت نظرته، وتهالك متكئا بإليته العجفاء على حافة المكتب. . هو في أغلب الأحيان هكذا، لحظته لها وجهان لا يشتبهان، فهو قد يبدأ كلمته معك بالتودد ويختمها بالسبّ، دون مبرر ولا سبب.

حمّة الذي يزاملني في العمل، والغائب اليوم، قد أغتابه مرّة، وتكلم عنه بخبث سار، ووصفه بالمرأة في مرحلة سنّ اليأس وانقطاع الطمث، وانتابتنا ـ أنا وحمّة ـ حالة هستيرية من الضحك، لهذا التشبيه المطابق.

يبدو الآن، هادئا ومطرقا، ويبدو في وقفته المنحنية المسندة بحافة المكتب الخشبي، رصينا وقورا في ملامحه السمراء الغليظة المرسومة بدقة، ذات الاشكال الهندسية المضبوطة، وتبدو غمازتاه بائنتين منزلقتين حذو شاربيه، ، لو قدّر له أن يكون زعيما سياسيا، أو رئيس دولة، أو أديبا كبيرا، لما أتعب الرسام في نحت صنم يخلّده عند موته.

لكن !!

لكن هذه الملامح المهندسة المضبوطة سوف تقبر تحت اللحود، وسوف يأكلها الدُودُ، فليس أمامها سوى ذلك.

* * *

للحقيقة، فهو قد جرّب أن يكون عظيما ومشهورا، لكنه لم يفلح، فقد عالج الشعر في شبابه، وأتقن صنعته، وفاز بثلاث جوائز مالية مجزية، حين شارك في عكاظيات نظمتها الدولة لمدح الرئيس والاشادة بمنجزاته.

وهو يذكر تلك الفترة الزاهرة من حياته بكثير من الزهو والحسرة المكتومة، فقد ترفهت فيها حاله، وجرت حياته لينة سهلة.. وبانقطاع حياة الرئيس، انقطع عنه شيطان الشعر، وانقطعت عنه الحياة السهلة.

وقد انغمس بعد ذلك في الخمر، واستحم به، وشذّ مسلكه، وأصبح يعاشر المنحرفين وسقطة القوم، وتقلب كذلك في مهن وضيعة، واحتقر الحياة، وأصبح ينبح بصوت عال حاد كالكلاب المسعورة، في مفتتح كل يوم... وحين يشتدّ انفلاته، يتمرّغ عاريا وبعنف على حشائش الحدائق العمومية...

... الى أن تزوج، فهدأت روحه، وتوظّف، ولم يكن منسجما

مع وظيفته، وكان يعارك زملاءه كثيرا، وكان يهزم في كل عركة، فيرجع مغتاظا إلى داره، ويعضّ زوجته عضّتين، عضّة في كل كتف، ، ، وينام.

وبعد أن أنجبت منه زوجته سبعة أبناء، ثلاثة ذكور، وأربع إناث، اكبرهم تخرج أخيرا بإجازة في السوسيولوجيا، طالبت بطلاقه، وعرّت زنديها أمام القضاء، فبهت المدّعي العام من الاثار العميقة لنياب الزوج التي حفرت على مساحة الزندين، ومن اللون الأزرق المسودّ الذي يلوّنهما، وحكم القضاء بطرده من بيت الزوجية وتغريمه بنفقة مستديمة للزوجة وللأبناء القصر، ولو لَمْ تسقط الزوجة حقها من تتبعه في مسألة العضّ لكان سُجِنَ.

بعد هذا، أصبح يبيت في أحد المساجد، ثم أصبح يصلّي الفجر والعشاء بميقاتهما مع الجماعة، ويسقط الصلوات الأخرى، ولان ثقافته قد حصّلها من جامع الزيتونة، عندما كان فتيا يافعا، وعندما كان جامع الزيتونة الأعظم قبلة طلاّب العلم، فقد تأقلم مع جوّ المسجد. . وصار الى كسب ثقة الذين يؤمّونه. . وشيئا فشيئا أصبح يتحدّث في الدين، ويبدي رأيه الفقهي، الذي كان يلاقي أذانا صاغية من سامعيه، وبدأت حلقة مريديه تتسع، وبدأت خطبه المرتجلة المتوارية تثير المصلّين، وبدأ يتطرق فيها إلى السياسة. . . وكان يعرف شيئا عن ماركس بالسماع، وكان يورد اسم ماركس في خطبه ويشتمه، ويقول : هذا اللعين ماركس انه من أَكَلَةِ لحم الخنزير، ومن شاربي الخمر، إنه يريد أن يفتّن بيننا وبين إخواننا وأبنائنا وزوجاتنا، فاحذروه !! إنه الدجّال الأعور الذي جاء ذكره في الحديث الشريف. فأحذروه ! إني رأيت في المنام وجهه الشرير يتآمر على كتاب الله وسنّة نبيّه، فاحذروه !! إنه إنه. . . ويهْتِفُ المصلون لقوله.

واغترّ بكثرة جلاّسه وسامعيه، وأضمر على أن يكون إماما خطيبا، ثم مصلحا إسلاميا كبيرا، ، لكن أمره بلغ الى إمام الخمس، وإمام

الجمعة، فاستاءا لسلوكه وغضبا،، وأمرا عامل بيت الوضوء بدسّ النجاسة في برنسه،، وعندما تخمرت النجاسة وشعشعت رائحتها من ملبسه،، أطرداه،

* * *

انه لا يزال يقف تجاهي، هكذا متكئا باليته العجفاء على حافة المكتب الخشبي، والله، كأنه مهموم حقًا، ان في هيئته انكسارا بيّنا. لكن لا يهم فسيصير إلى الحديث معي، سوف لن يكتمني حاله، أكيد انه سيطلع بأمر لا أتوقعه تماما،،، ان الذي يحيّرني للغاية، هو اني لا أستطيع التكهن بما سيقوله،،،

والأشدّ عجبا، أنه أول أمس باغتني بانفجار نقمته على البلاد،، وقد سبّها أذّاك بأقذع وأقبح الأوصاف !! ثم فجأة هدأ،، ثم عاوَدَ الكلام بيأس وتقطع،، وعبّر عن مرارته لأنه ولد في عصر ساقط ليس بعصره... ثم اندفع في الحديث بغضب وقال انه سيتعلم اللغة الفرنسية وأنه سيطلق العربية، وأجزم على ان لا يتكلم إلاّ بالفرنساوي وقال أن هذه اللغة العربية الكلبة لم تعطه شيئا، وقال انه ينوي الزواج مجددا،، والفرنسية هي سلاح مضمون لايقاع المرأة العصرية،، وقد بدا لي -جادا في قوله، لا، ليس صحيحا، لن يكون جادًا، بل مجرّد خاطر عنّ له فقاله،، كهل مضطرب ماذا انتظر منه ؟!!

«انني متعب، انني أحسّ بقلق ثقيل يكتنفني، ولا أدري لِمَ يترافق هذا القلق مع فكرة الموت، ان الموت أصبح يخيّم عليّ، اني احسّه بتفجع، اني أكاد أرى شبحه يلاحقني ويحتويني، اتعرف ؟ : ان الفترات الوحيدة التي أشعر فيها بالاطمئنان، هي التي أقرأ فيها شيئا من كتب التراث،، اني اشتريت أخيرا عددا من كتب السيرة، وصحيح البخاري، وتفسير السيّوطي،،،، ألا بذكر الله تطمئن القلوب».

قال هذا بتوتر وعجالة، ودار دورتين، وانصرف.

عبّاس
يوزّع المناشير

«لن أخسر شيئا» وطوى عبّاس الورقة ذات المربعات الكبيرة التي توحي بأنها اقتطعت بخشونة من كرّاس تلميذ ابتدائي حتى تثلمت حافتها المدبسة، ثم دسّها بتراخ في جيب سترته الخارجي، وبقيت أصابع يده اليمنى مغمورة في الجيب حين كرر : «لن أخسر شيئا». هذه المرة لفظ الكلمات بخفوت وتقطع شارد، لكأنه يحاول إقناع نفسه بمعانيها، أو ليبرهن لها على أن الأمر ليس بذي أهمية، وهو خلاف ما داخل ذهنه من البداية...

إنه لا ينكر أن هؤلاء السادة مخيفون، ويستطيعون إخضاع عصي الاشياء لسلطانهم وأهوائهم. ان كلامهم اللين المفعم بالرجاء والتوجيهات الخيرة المصلحة، ينطوي على جلالة عزة وجبروت قادر وعنيف، وارشادهم الذي يتخذ سبيلا رحيما حسنا، غير ملزم، انما هو أوامر صارمة للتنفيذ، اقتضت حكمتهم ان يكون بذلك الشكل الديبلوماسي لغاية يدركونها.. انهم مخيفون ويكافئون، وانه ليفزع من أي نازع ينسل الى قلبه ليشوشه...

«لن أخسر شيئا» لم يكن يقصد خسارة ما بحوزته، لانه لم يفكر جديا في عصيان ما جاء بالورقة، رغم بعض الخواطر المتهاونة التي طرأت على ذهنه، ولو وسع لها فيه، لجعلته يتكاسل ويسهو عن الأمر لغاية اهماله، كما يحدث له أحيانا، عند تكليفه بنوع من الشؤون الخدمية من رؤسائه بلا مقابل، أو حين يهم بقضاء حوائجه غير الأكيدة.

لكن في هذه الحالة، الخوف والطمع يجعلانه يعقد النية على التنفيذ، فخوفه من بطش السيد وغضبه يحفّزه كليا على تأدية المطلوب، وطمعه في الجزاء العميم الذي تَعِدُ بِهِ الكلمات ذات الخط الرديء الأعوج، المرتعشة حروفه الكبيرة الناتئة والمرسومة بقبح وفجاجة، مما يدل على أن زوجته فاطمة قد قامت بنسخها، يجعله يهفو إلى نيل رضا السيد ووعوده، لذلك فقد عقد النية على تنفيذ الوصية التي جاءت بالورقة.

لكن هذه المرأة الملعونة تقول انها وجدت الورقة في البيت، تقول ان أحدا سرّبها من فجوة تحت الباب الخارجي، دون ان تتفطن، وتقول إن الورقة لفتت نظرها حين كانت تكنس !! حسبتها في الأوّل فاتورة ماء أو كهرباء أو وصل كراء، فعادة عندما لا يجد ساعي البريد أحدا في البيت يرمي هذه الأشياء من تحت الباب، وهي تؤكد انها لم تغادر البيت، ولم تسمع طرقا ولا حتى نقرا.. المهم، كانت الورقة بيضاء مطوية بعناية، رفعتها وتهجت ما كتب عليها، استبشرت خيرا ببدايتها

ذات الديباجة التي تعبق بالكلام الزكي المنقى، ثم تطيرت بما تلاها من معان متوعدة حادة، وَقَرَ قلبها، وانقادت للتوّ تَنْسَخ، وقالت انها استطاعت أن تنسخ عشر ورقات، وهي عازمة على اتمام العشرين، وستوزع النسخ حالما تنتهي منها على الجيران والمعارف. . أصحيح أنها وجدت هذه الورقة في الدار ؟! اني أعرف انها متلصصة متهافتة، ولربما طلبتها من أحد !! لكن ما دامت تهدف بهذا العمل إلى الخير، فليس مهما كيف وصلتها. . .

رفع يده الى جيب سترته الخارجي، أخرج الورقة ذات المربعات الكبيرة، فتحها و عاود القراءة، وجد ان خط زوجته سيء جدًا، ويكشف عن هزال تعليمها وقلة معرفتها ودربتها على الكتابة، فهو مثل خط كهل في مدرسة مسائية لمحو الأمية. . . اعترف في سرّه أن خطه ليس احسن بكثير من خط زوجته، وتذكر انه لا يتفوق دراسيا عليها كثيرا هي زاولت ست سنوات تعليم، وهو أمضى ثماني. . . لكنه يعرف ان له أصدقاء لهم نفس المستوى وخط كتابتهم أجود. . . فكزّ على أسنانه ونادى :

ـ يا فاطمة. . . خطك سيء وداخل بعضه !
ـ لا يهم، المفيد انها كتابة وكفى. . . اريد أن احصل على عشرين نسخة كيفما كانت حالتها.
ـ وما الفائدة إذا كان الخط غير مقروء ؟! جهدك ضائع، ولن تنالي الأجر وأوراقك مثلومة الحواشي، انك لا تقدرين حتى على اقتطاع ورقة من كراس، يداك خلقتا لتقشير البطاطا وللكنس، خلّي عنك خلّي. . .
ـ هاك توكل انت الأمر أيها الخطاط !! الذي يعنيني عشرون ورقة لي.
ـ اعطني الأصل، لن انسخ ولا واحدة، سترين كيف اجعل خمسين صورة لهذه الورقة. . . عندي فكرة خارقة للعادة.

* * *

في مؤسسة البنك الوطني للتنمية، في الدور الرابع، المفروش كله بالموكيت

الشكلاطي ذي الفروة، في آخر الممر، على اليمين، مكتب مدير القروض والتنمية، قبله بالضبط، في تلك الفجوة المستطيلة التي تفصل بين مكتبين، ترى، اذا ما انتبهت، طاولة خشبية واطئة، وراءها كرسي ذو إطار حديدي ومقعد مبطن بالنشاف، وحيث ترفع عينيك متسلقا بنظرك حائط هذا المكان، تبصر على ارتفاع مترين من الأرضية المفروشة لوحة معدنية، خضراء فاتحة، تتوسطها خمس مربعات بلورية صغيرة مؤطرة بعازل بلاستيكي أسود، وعلى طول فترة الدوام تبدأ الأرقام في القفز الى المربعات الصغيرة مصحوبة بذلك الرنين القصديري الملح، الذي يشبه صوت ناقوس المدارس الاعدادية. . . ينهض عبّاس من وراء طاولته الخشبية، أو من فوقها، يسوي ربطة العنق ذات العقدة الكبيرة. بين ياقتي قميصه المكسرتين الرخوتين من الغسيل المنزلي، يدوس بإبهامه على الزر المثبت في اللوحة تحت المربعات، ويشتم ويربرب، اذا كان رقم واحد هو الذي ظهر في اللوحة، فان عبّاس يذهب دون تكلؤ، رغم انه يشتم ويربرب. الرقم الواحد هو المدير، مدير القروض والتنمية، ومدير حياة عبّاس كلها، علاوات ساعات اضافية توبيخ وكلام آمر صارم، حتى ان عباس وطّن نفسه من الداخل على هيبة المدير، لكن الشتم اصبح طبعا من طبائعه، فعبّاس عوض أن يقول نعم أو حاضر، فانه يشتم ويربرب، في سره، أو علنا بصوت خفيض يكاد لا يتبين، ويحس مع ذلك احساسا مبهما بالقهر والغبن، لا يعرف سببه تحديدا، انه يكره هذا البنك وهذه الوظيفة، ويعمل، يكره زوجته ويأتيها، يكره بدلته الفاقعة المتهدلة ويلبسها، يكره الخمر ويسكر، يكره رمضان ويصومه، يكره الحياة ويعيش، كراهية طيبة لا حقد ولا تذمر فيها، كراهية تحاذي الحياة بازدراء خاو بارد، فقط الشتم، انه يشتم بعصبية مسالمة، ويشتم نفسه أيضا. . .

لكن عبّاس هذه المرة يبدو شديد الانفعال، وجهه محتقن غاضب هائج، ويبدو مندفعا بصدره ويديه، اثنان من الموظفين يمسكانه من

ذراعَيْهِ، انه يتوعد ويقسم بالايمان الغليظة ويسبّ، ضجيجه يَمْلأُ الممر والمكاتب... أبواب الغرف تفتح ويطل الموظفون، أصوات الآلات الكاتبة والحاسبة تهدأ، السكريتارات والراقنات اللواتي أغرقهن وسطهن الاداري في السطحية والتصنع، يغلقن أفواههن على علكاتهن بترقت... الاداريون الصغار يخطون مترددين ملتصقين بالجدار، يتوقفون ثم يتقدمون ببطء في اتجاه اللمة... رؤساء الاقسام يصلون ويستفسون بنبرة استنكارية... رئيس قسم الأمن الداخلي ببدلة الشرطة الرمادية ذات الكتافيتين بنجمتين فضيتين، تشيران الى رتبته كَوَكِيلٍ أول، يبدو متحفزا متنمرا، هذه فرصته في المؤسسة البنكية لكي يحكم، ويظهر سطوته كرجل دولة حازم وعتيد... وما هذه الفوضى ؟! اصمتوا.. اصمتوا جميعا!! تنح انت من هناك.. ابتعد.. نعم انت! وانت الا تخرس! عباس ان فتحت فمك ثانية فسأوقفك حالا»... عباس أراد ان يواصل الكلام، ان يبين كمحاولة أخيرة، انه بريء وليس له صلة بالسياسة ولا السياسين، ولا يفهم معنى مناشير، وان هذا الكلب المختار موظف الأرشيف، هو الذي حبك له اللعبة المغرضة، وانه دائما يحتقر هذا الماركة ولا يستجيب لأوامره وطلباته الادارية المشطة، وحتى حين يظهر رقم مكتب الأرشيف في لوحة النداء لا يذهب له... وليقول ان هذا المختار متنافح تافه، يحسب نفسه مسؤولا وهو لاشيء، وان راتبه لا يفوق كثيرا راتبي، رغم انه اداري وأنا معاون لكنني أقدم منه في هذا البنك... واحتقره... ووالله انه لا يستاهل الا الاحتقار... الا يستاهل الاحتقار هذا الذي لفق لي هذه التهمة الدنيئة ووشى بي لسيادة الوكيل ؟! يا خلق الله انا أوزع المناشير السياسية !.. انه رآني أصور بضع ورقات على آلة التصوير التي بمكتب الأرشيف فقط، ثم سلمت أمامه، في العلن، خمس نسخ الى عبد الحفيظ الزميل بقسم الضبط، وأوصيته بتوزيعها.. ورأيت هذا الساقط عندما نظر اليّ بمكر ورفع سماعة الهاتف وركّب الارقام، لم أدر انه يقصدني بذلك... ! لو عرفت

لكسرت الهاتف على رأسه... اللقيط. ! عبّاس أراد ان يقول كل هذا.. عساهم يفهمونه.. عسى هذا الشرطي الذي بدأت خطورته الخافية تبرز، وتتضح في جدية حركاته، في سحنته المنذرة في بدلته التي اتخذت لونها الرسمي المؤذي، وأيضا في مسدسه المتستر بالغمد الجلدي الأسود حد المِقْبَض... الان يعرف عباس ان وكيل الشرطة هذا، هو فعلا رجل شرطة !! سابقا كان يألفه، كأنه لا يحمل مسدسا وليس في كتفيه نجمتان فضيتان لا تلتمعان، وكأن زيّه مدني محايد... مكتب الأمن الداخلي المزجج نصف حائطه الخشبي الأمامي الأعلى، منصوب حذو الباب الرئيسي لمقر البنك، يمر عباس عديد المرات في اليوم الواحد، دخولا وخروجا، لطبيعة عمله، يرى الوكيل وأعوانه، يتبادل واياه التحية، ودائما بحرارة وصداقة، يتساءلان عن أحوال وصحة بعضهما، ، أحيانا يتمازحان ويراوغان بعضهما بكلمات فاحشة أو نكتة ويقهقهان... «عبّاس ان فتحت فمك ثانية فسأوقفك حالا»... انه يشعر بوطأة هذه الجملة، بثقلها وسلطتها المتحققة فيه، وفي وسط هذا اللغط العالي المحيط به، والذي بدأ يهبط ويهدأ بفعل كلام الشرطي... عباس ينكتم، يختنق بكلامه الدفاعي، يستسلم للكلام الأمر المتوعد، وتنطفىء عصبيته وغضبه، ينظر بعينين تستنجدان بتوسل... يتبخر اللغط الا من كحكحات مكتومة من الموظفين الذين افسد التدخين صدورهم وحناجرهم وأسنانهم، والمتحلقين بتبعثر حول عباس ووكيل الشرطة... ثم اصطفاق باب في آخر الممر، نعم على اليمين، مكتب مدير القروض والتنمية، يطلع المدير بجسمه الربعة الذي تحفّ به علامات النخوة والنفاذ، وهو يخطر متعاليا كمستعمر فرنسي... اصطفاق الباب لينبه الجميع لحضوره.. واثق الخطوة يمشي ملكا، وتنتظم الانفاس على ايقاع خطوه... الوكيل يدرك ان دوره في هذه المشكلة، وكذلك مركزه الذي ارساه في هذه اللحظات، في روع موظفي الدور الرابع كرجل سلطة مهاب ومتحكم، يحس انهما يسحبان

منه لوهج أكثر سلطة وتحكما، لذلك فقد بادر قبل ان ينتهي المدير إلى حيث اللمة :

ـ سيدي المدير، لقد أبلغني قبل قليل، موظف الأرشيف بإداراتكم، هذا، ان معاونكم عباس يقوم بتوزيع مناشير، وقال انه يظن انها سياسية، فخففت مسرعا لتبين الأمر، وها انا كما ترون وجدت هذه الكمية من الورق المصور، يخفيها عباس في هذا الملف الأحمر. . . وقد حجزت أيضا مجموعة النسخ التي سلمها لموظف قسم الضبط هذا، وأرى ان يتم اعتقال عبّاس لذمة التحقيق ومعرفة فحوى هذه المناشير ومصدرها وعلاقة معاونكم بها. . .
ـ ولكن ايها السيد الوكيل، قل لي من فضلك، هل اطلعت على مضمون هذه المناشير؟
ـ لا. . . لم يسعني الوقت لأفعل، وعلى العموم ليس هذا أوانه ! سيتم ذلك في الدائرة المركزية عند اجراء التحقيق. . .
ـ اذن اعطني نسخة لأتعرف على ما فيها، علّني أساعدكم.
ـ تفضل. . .

خطف المدير النظر الى الورقة، وكأنه مصعوق قال بصوت مرتفع ومندهش : اسمع !! اسمعوا !! اسمعوا ما في الورقة :

«من سيدي معاوية احمد الكيلاني الشريف سليل فاطمة الزهراء كرّم الله وجهها وحفظها، المستوطن بزاوية شيخنا المبرور سيدي الزبير الهاشمي القرشي وليّ الله المتأخر المتوفي بفاس حيث لا تغرب عين الله ـ الى المؤمنين بالله واليوم والآخر والتابعين وتابع التابعين للرسول صلى الله عليه وسلم والذين يرجون ملاقاة وجهه تعالى يوم لا ظل إلاّ ظلّه.

ان سيدي معاوية أحمد الكيلاني الشريف الفاضل جعلنا الله من المخلصين لطريقته المحظيين بصحبته المنعمين ببركته، بات ليلة الخميس الخامس من ذي الحجة من القرن الخامس عشر من هجرة نبي الأمين في هذه المعمورة الفانية، طاهرا قاضيا حق ربّه عليه. مطمئنا

على سرّه فيه، وفي ساعة السحر قبل قيامه للفجر، راره سيدي الزبير الهاشمي القرشي بطلعته المهيبة المشرقة الخافقة نورًا، وحين همّ سيدي معاوية بالترحيب، تكدّر وجهه السمح، وندّ عن جبينه عرق أحمر كالسعير وأسود كالقطران، وأرعد بصوت كالزمجرة قائلا : قابلت النبي في هذه الحجة، وَهُوَ غاضب على أمته التي استشرى فيها الفجور والكفر والنفاق والهوان، يا عبد الله بلّغ كلامي لعباد الله، اتقوا غضب الله، اتقوا غضب الله، إن القيامة آتية لا ريب فيها. . انها قاب قوسين أو أدنى من أرواحكم، فخفّوا وسارعوا لتوبة ومغفرة من لدن عزيز حكيم، ستكسف الشمس مرّتين ويخسف القمر مرتين، ليأخذكم الله بعدها أخذا شديدا وأنتم غافلون.

يقول سيدي معاوية أحمد الكيلاني الشريف ان من نشر هذا الكلام على عشرة أفراد سيلقي حين يرقّ الهلال في السماء المدلهمة فرحا وبهجة في بيته وفي زوجه ومن نشره على عشرين لا ينتصف الهلال إلاّ ويتكدر عدوّه وحاسده، ومن نشره أكثر من هذا فسيصلح الله أمره دنيا وآخرة ومآله الجنة بإذن الله، ويقول سيدي معاوية ان من يحتقر كلامنا ويزدريه ويرميه أو يتهاون به فسيأتيه المرض صبحة أو عشية وينكب في عزيز عليه ويشقى عمره ومآله الجحيم وبئس المصير».

الفستـــان
الأبيـــض

في تلك المدرسة الابتدائية، التي تقع شمال المدينة، جنب المساكن المنخفضة لبطحاء السوق، يكتظّ التلاميذ الصغار، قبل وقت الحصص بقليل، مالئين المكان بلهوهم الطفولي وعبثهم المجاني البريء، يطنّون متدافعين ضاجّين كخلايا النحل... وشمس أفريل في أيام نضارتها الباهرة، تفيض عليهم بحرها الفاتر، الذي دفعهم للمجيء خِفَافا من ألبستهم الشتوية، ودفع أيضا المدرسين والمدرسات للتخلص من المعاطف والجكيتات المبطنة الثقيلة.

كذلك «زينب» مدرسة اللغة العربية بقسمي السنتين الثالثتين (أ و ب) تبدو هي الأخرى، في هذا الجوّ الصباحي الرائق كأنها مسحورة، تمشي على رصيف باحة المدرسة مختالة بتيه، محتفلة بجسدها المجسمة اشكاله المكتملة الواضحة عبر فستانها الأبيض الربيعي المخلل بالحرير. . . كان من عادتها الوصول الى المدرسة في وقت حصّتها تماما، لتباشر بارتداء آزارها النيلون الأبيض الفضفاض، الذي يقي ثيابها غبار الطباشير، وتسرع للوقوف أمام صف تلاميذها ذوي الخلو والطراوة والنزق. . . تلاحظ لهم باقتضاب متزن عن اضطرابهم في الانتظام مستويين، أو تشير عليهم بالهدوء والسكوت، وبعد ذلك تأذن لهم بدخول القاعة. . .

لكن في المدة الأخيرة، وبالاحرى، منذ ولّى الشتاء وكفّت السماء عن نزّها، وبدا الطقس يَصْفُو وَيَدْفَأ، أصبحت زينب تبكّر في المجيء. انها تصل قبل توقيت الدروس بدقائق كثيرة، عندما لا يكون هناك احد في المدرسة غير «عمي الصادق» العسّاس المنهمك في تنظيف القاعات وفتح أبوابها وشبابيكها للتهوئة. . . تصبّح عليه. . . فيرّد داعيا لها بحسن العاقبة والتوفيق. . . ويقرن حاجبيه في مداراة، تعجبا من حضورها الباكر، الذي كان فسّره في البداية على أن لديها شغلا متأخرا أتت لتتمه قبل بداية العمل. . . ثم ثبت له خطأ ما ذهب اليه. . . فمنذ أسبوعين تقريبا، وعلى غير العادة، صار أوّل من يصبّح عليه من المدرّسين هي زينب، التي عُرف عنها انضباطها في المحافظة على مواعيد دخولها وخروجها. . . كانت لا تقدم ولا تأخر ولو مقدار دقيقة. . . وها هي الآن أوّل من يبادر بالحضور. . . ! وقد لحظها أكثر من مرّة، عندما تدخل القاعة، تُخْرِج مرآة يدويةً حادة التقويس من محفظتها الكبيرة، وتبدأ في تسوية شعرها وفرك وجنيتها وتحلية شفتيها بالأحمر، ، ، بالفعل انها تتزيّن، بَيْدَ انها زينة الصبايا، اذ تبدو بعدها كأن دماء الحشمة لازمت وجهها، سيما انها لا تسرف في استعمال الماكياج. وبعد ذلك تخرج الى رصيف ساحة المدرسة، وتتمشى متمهلة بخطوات خفيفة

الوطء بطيئة، مراوحة بين أول الرصيف وآخره، لكن رغم ثقة مشيتها فان شيئا من الضيق والاضطراب يتضح في ملامحها وتلفتها المتتالي ناحية باب المدرسة، الذي يكون قد أشرع في ذلك الحين، وتوافد الأطفال والصبية للتجمع أمامه وعلى جنبيه، وكذلك مراقبتها المستمرة لساعتها التي تتدلى في سلسلة ذهبية دقيقة من رقبتها وتستقر عند مطلع صدرها الناهد الملفوف بكبس في ذلك الفستان الأبيض...

عجبـا !!

انها من اليوم الذي أصبحت تأتي باكرا وهي ترتدي فستانا أبيض.. هذا غريب ! انها تنوّع على نفس اللون، قطني، كتّان، حريريّ... ودائما فستان ! ودائما أبيض ! وبشرتها قمحية وهذا اللون الشفيف الصافي يغمّق سمرتها، هو صحيح ان تفصيلة فساتينها البيض تطلق فتنة جسدها وأنوثته، لكنّها تغمّق سمرتها... ! ولماذا اللون الأبيض ؟ ولماذا دائما ؟ ماذا أصابها يا ربي ؟! هذا ما كان يجول في خاطر «عمي الصادق» ويجعله يرمي بالظن والشبهة سلوك زينب المستجد...

لكن لم يكن ليعلم أن زينب قررت في هذا اليوم، بعد ان بقي على موعد تدريسها ثلاث دقائق، وهي الفترة التي تكفيها لارتداء آزارها والتهيؤ لاستقبال التلاميذ، وبعد ان سئمت هذا الانتظار المتكرر المملّ والمهين والذي يجعلها مشدودة الأعصاب والذي لم تر له نتيجة أبدا... قررت أن لن تأتي قبل الدوام بعد اليوم أبدا.. وأن لن تلبس فستانا ذا لون أبيض تافه، بعد اليوم، والذي شبهته في تلك الحالة من التحسّر والغيض، بكفن الموتى.. إن الغيظ يخنقها ويجعلها تشعر بإهانة فظيعة اصابتها... ألهذه الدرجة كنتُ سخيفةً.. وألهبت تلك الكلمات العابرة التي ألقى بها زميلي عبّاس خيالي ؟

يا للسذاجة

كان هذا في أواخر شهر تشرين الأول، في بداية السنة الدراسية، التي لم يمض على استئنافها إلاّ اثنا عشر يوما، وقد سبق ان تخرجت من

معهد ترشيح المعلمين، وكان هذا العام أول عهدي بالتدريس، وكان يومها جمعة، وكان الصيف يختنق بوهجه الحامي اللزج الأخير، وكنتُ ارتدي فستانا أبيض رهيفا. . في ذلك اليوم اجتمع بنا المدير. . . المدير جاء متأخرا باثني عشر يوما، قيل انه كان مريضا، وقيل انه امتنع عن المباشرة في هذه المدينة، بدعوى انه ليس أصيلها، وانه كان يرغب من المندوبية الجهوية ان تعيّنه في مدينته، أو قريبا منها. . ولم تتحقق رغبته، واجتمع بنا، مدرسين ومدرسات، اجتماع تعارف ليس إلاّ؟!. . . عبّاس الشاب المليح الضامر، مدرس لغة فرنسية بالأقسام النهائية في مدرستنا. وجهه أليف بالنسبة إليّ، فقد تعرّفت عليه منذ اليوم الأول. . . ليس هذا كل الأمر. . . إذ أني أرى أن هناك شيئا فيه يأسرني ويثير فيّ اهتزازات غريبة. . هكذا بدأت الأمور معي. . . في يوم الجمعة ذاك. وجدت في زحمة الزملاء، والمدير يتكلم، ان عبّاس قريب مني، كان يبعد عني مسافة يدٍ ممدودة. . هذا أربكني. . أحسست بأن شيئا ينقصني أو كأنني مربوطة. . . أحسست أنني غير مرتاحة. . وتلقائيا درت نحوه وابتسمت. . . نعم ابتسمت ! ربما لأصمد ولا تختلج ركبتاي. . . ووجدت أنه اقترب. . ! شعرة ويلاصقني. . . ثم مال على أذني قائلا بلغة فرنسية ما معناه : «حقا إنّك رائعة في هذا الفستان الأبيض الملائكي». . . كهربتني تلك الكلمات التي أحسست أن فيها ما يشبه البوح. . . ما يشبه جسارة الرجولة. . ما يشبه الدعوة أو الرغبة. . . ثم جاء الخريف مع الشتاء مع الأمطار مع الاكفهرار. . . وبردت الدنيا وانكمشت. . . إلا تلك الكلمات بقيت ساخنة حيّة في أذني وقلبي. . . وعبّاس كأنّه لم يقل شيئا !. . واستمر يزاملني كأنّه لم يقل شيئا ! ولم يصدر عنه شيء آخر مما أتشوق إليه. . . ! وحين تساهل الطقس وصفا عاودت ارتداء ذلك الفستان الأبيض الرهيف رغم نسمات الصباح القارسة. . . واشتريت فساتين بيضا أخرى، أكثر سماكة، ارتديتها تباعا، علّني أحرّك دوافع تلك الكلمات المتوهجة الجارحة في نفس عبّاس. . كنت ارتديها

واتعمد الحضور المبكر. . . علّني أصادف حضوره هو الآخر مبكرا. . . علّني ألقاه قبل وقت العمل وقبل ان يحجب هذا الأزار الفضفاض اللعين ملفتات جسدي. . . لكنه كان دائما يأتي في وقته المحدد. . . وأحيانا يتشاغل عن تحيّتي ! أيكون غير قاصد ولا مسؤول عن معاني تلك الكلمات ؟! أي حق دفعه ليشقيني بها. . تفّ على هذا الفستان. . . لن ألبسه بعد الآن. . . لن ألبسه.

إسمـــك :
جُلغــم

«أن تكون مضطهدا يعني ألا تستطيع أن تقول «أنا» إلا وتحسّ بأن هذه «الأنا» مشقوقة في منتصفها، ومكسورة في صميمها من قبل الآخرين، كل الآخرين».

(ميشـــال فوكــو)

في نهج «زرقون» بتونس، ذات مساء صيفي متأخر، حين يكون ممر النهج الطويل الملتوي الذي تعلو فوقه بنايات بطابق واحد فاصلة بين بقع ضوئه وظله ومكوّنة بجموعة انفاق متتالية بأقبية عالية نصف دائرية مهترئة ومسلوخة السقف، قد خلا من الباعة والسماسرة والوسطاء والزبائن، الذين غادروا النهج مخلفيه على حالة انتشار فوضى ووساخة همجية، توحي أنه تخلّص للتوّ من عملية نهب وشغب كبيرين.

هذا النهج هو بمثابة السوق السوداء العلنية، يبدو في نهاية المساء خاويا متفاجئا بالهدوء وكئيبا، وقد غطت أكوام مبعثرة من الزبالة والفضلات أرضيته المرصوفة بالحجر الصلد المستطيل، حتى غدا المرور منه يتميز بالوثب والحذر من التعثر بتلك الأشياء المتداخلة المرمية باهمال وسوء، والتي هي عبارة عن صفائح تنك قديمة وصناديق كرتونية كبيرة ممزقة وألواح خشبية غير صالحة وعلب فارغة لتبغ مستورد وأكياس بلاستيكية كانت تحوي ملابس ايطالية وبقايا مشمعات يابانية وطاولات حديدية غير ذات قيمة ترتفع أرجلها إلى فوق وقد قلبها أصحابها الذين يتخذون منها نصبة لعرض بضائعهم، حتى لا يستعملها بعدهم أبناء الليل.

كل هذه الأشياء وغيرها، المندلقة بغير رحمة، تشكل حواجز حقيقية لرهط من الرجال المخمورين الذين يسلكون النهج مترنحين لاعنين شاتمين عند كل تعثر أو اصطدام أو سقوط. . وكذلك لنفر من الجنود الريفيين الذين يقضون مدة العسكرة في العاصمة والمسرحين لسهرة يمضون بدايتها في نهج «عبد الله قش» المكان المشهور للبغاء العلني، المتفرع عن نهج زرقون، توفر فيه نساء كهلات وعجائز أجسادهن المتآكلة عديمة الحس بمقابل، مما يجعل هؤلاء الجنود وهم عائدون من هناك قد عرّوا صدورهم وانخرمت طريقة ارتدائهم لبزّاتهم العسكرية التي بدت مهلهلة على أجساد فتيان يمشون بتهاد وكسل، فاغري الأفواه كالدجاج، من فرط الحر واللهاث، محدثين هرجا حين يقفزون فوق أكوام الفضلات أو حين يركلونها بأحذيتهم العسكرية القوية الخشنة.

في هذا الوقت الذي يسعى حثيثا لسكون ظلامه القائظ محيلا عملية التنفس إلى أمر شاق ومخنق، منفردا بروائح كريهة عفنة تنثرها البرك السوداء بمحاذاة البيوت الخلفية، وكذلك الجدران التي سخنت رطوبتها فتبخرت دبقة ممتزجة برائحة البول المختمر المنبعث من مبولة «سيدي عبد الله قش» الفائضة تسيل منها سواقي صفراء صديدا، حيث يفرّغ

مرتادو بيوت العاهرات مثانتهم قبل تعاطي الجنس مقابل خمسة دنانير. . بهذا المكان الذي خلا من التجار وباعة المهرّب واللصوص والنشالين والافاقين والمتسكعين والمخبرين والمرتشين والمتفرجين والفضوليين والمارّين وخلق كثير. . يساهم هذا الجمهور الغريب المندمج في مهرجان صخب وضجيج لا مثيل له، يتنافس فيه صراخ باعة مع أصوات فيديو مع اندلاع خصام مع أصوات كاساتات تبث على الآخر أغاني أم كلثوم ولوردكاش مع موسيقى جيمي هندريكس مع حبوبة مع مايكل دجاكسون مع عبد الباسط مع عدوية مع الشيخ إمام مع مرسال خليفة مع أيدي غرانت مع لعلعة الشيخ عبد الحميد كشك «عن الدجال الأعور ذي الأصل اليهودي الذي يخرج ومعه ماء ونار فأما الذي يراه الناس ماء فنار تحرق وأما الذي يراه الناس نارا فماء بارد عذب، فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه نارا فإنه عذب طيب. . إن الدجال كالغيث استدبرته الريح فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا فيضربه بالسيف فيقطعه جذلتين، رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عنه المنارة البيضاء شرقي دمشق واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفع تحدر منه مثل الجمان فيطلبه حتى يدركه بباب لدّ فيقتله». . تبارك الله العادل قاسم الجبابرة والدجالين. . .

وهكذا تتناوب على النهج في هذا الصيف الكافر حالتان. تفرط الأولى في هستيريا منفجرة حامية مدوية تصم الآذان وتجعل الرجال يدلقون أسطل المياه على رؤوسهم والشباب يفركون أنصاف أجسادهم العليا بقوالب الثلج المكسرة. وتفرط الثانية في ظلمة هادئة ثقيلة مشبعة بحرارة ساكنة تبعث الدوار، وتهيّج جيوش الحشرات والبعوض. . حتى أن إبراهيم قال بصوت ساخط مسموع، واضح التبرّم والنقمة الساخرة، وهو ممدود على سريره منقلب على بطنه، عار، وقد انتشرت

البثور الحمراء المفرفطة على ظهره ورجليه المنفرجتين، داخل هذه الغرفة المعتمة المضغوطة التي تضم فراشا آخر لصيقا بسرير إبراهيم وتقع بالطابق الأول من وكالة (مرزوق) للعزّاب، قال : «لو لم يلعنّا الرب بهذا البعوض الذي يطنّ ويحرّك جناحيه بكيفية يدفع بها ما يكفينا من الهواء لكي نتنفس لكان قضي علينا»... وانتفض قافزا مزمجرا : تفوّه.. يا بعوض الجحيم ستقتلني.. إنك ستقتلني.. اللعنة على دينك.. لم ينه شتيمته حتى كاد يقع، فقد تعرقلت ركبته اليسرى بحاشية السرير وكاد يقع. كركر قدميه بحذر متحسّسا الحائط. تلمّس لمسات متتابعة، وداس على زر الكهرباء فغمر الضوء الغرفة. إنها العاشرة والنصف حسب الفياقة المنزوية بجانب ساق السرير الظاهرة قرب موضع الرأس.. هيه.. سيقع لي كما وقع البارحة وما قبلها. ! ليس من فائدة.. حاولت الرقاد باكرا، من الثامنة، ولم أفلح في الظفر بالنوم.. استوت الأحوال، آوي باكرا أو متأخرا، أدخن وأشرب قهوة، أولا أدخن ولا أشرب قهوة، فلن يجيء النوم، أرهق عينيّ بالقراءة والسهر ولا يجيء النوم، أتعب رجليّ بالمشي والتسكع والدوران ولا يجيء النوم، تجيء الهواجس والصور والخيالات والاستحضارات والاغفاءات الخفيفة المتقطعة ولا يجيء النوم، يجيء وجه رئيس الحظيرة قلقا غاضبا سابا الدين غير مقتنع بكفاءتي كمراقب لعمّال البناء ولا يجيء النوم، يجيء اتهامه بأني ساه ومتهاون وآكل الفلوس الحرام، وأعمل على غير ما يرام، والعمّال يستخفون بي ولا يحسبون لي حسابا ولا يجيء النوم، تجيء البنات والنساء متميزات بمهابلهن وأثدائهن، فاقدات الأرجل والأيدي والأبدان ولا يجيء النوم، تجيء ملامح أمي تعبة غير راضية ومعها وجه سامية لائقا طافحا حبيبا مفعما بالأنوثة المجننة ولا يجيء النوم، يجيء العرق والسهاد والبعوض والخنفس والبق.. «وأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصّلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين».. ولا يجيء النوم، يجيء رجز الله وعداوته مع أني لا أعاديه ولست من بني إسرائيل ولا

يجيء النوم... تجيء الشياطين لتصعد بروحي، لتصعد بروحي..
آه.. هيّا لأخرج من هذه الغرفة الموبوءة لأخرج، ولو قضيت الليلة كلها في الشارع...

والرائحة، رائحة المبولة تتحلّ في الغرفة بقوة وتؤذي عينيه، وكذلك البعوض تكاثر بفعل الضوء.. ومن فوره انتعل مداسا خفيفا من البلاستيك الأبيض، بعد أن انحنى تحت السرير ليلتقط فردته اليسرى، وارتدى قميصا أصفر فضفاضا على سروال دجين صنع محلي ماركة (فليبر) مقصوص فوق الركبتين، ودسّ في جيبه الخلفي بطاقة الهوية وبطاقة العمل، تحسّبا لحملات التفتيش المتكاثرة منذ مدّة، مع لفّة من الورق النقدي وورقتين بيضاوين مجعّدتين مكتوبتين، بياضهما متسخ من اللمس، مرفوقتين بقلم جاف، قرمزي مذهب، ووضع القطع النقدية النحاسية الصفراء والبيضاء فئة مائة مليم وفئة دينار في جيبه الأمامي.

في هذه الساعة كان عمّال التنظيف الليليين يعملون بهمّة وصمت يثيران الشجن، وكانت القطط الرقطاء ذات اللون الأشخم تنطّ وتحوم بين أكداس الزبالة، وكان موح الأعور بائع الخردوات قد همد حسّه باكرا، والتوى عنقه، وتعوّج ذقنه المشعّر الأشهب، وقد تناسلت فيه بالونات جلدية مائية أحالت بشرته إلى وردية نازّة قيحا، وهو منطرح بجسده النحيف، مهملا مبعثرا، تنبعث منه رائحة الدمل المتعفن العطن كما رائحة بيض فاسد، أمام عتبة باب الوكالة.. كان إبراهيم حذرا حتى لا يتعثر به، وتجاوزه مهمهما: «ليت عمال التنظيف يخطئون ويكنسونه مع ما يكنسون حتى يرتاح ويريح النهج.. أنا متيقن أن هذا المستضعف بائع الخردوات سيلتهب يوما ما.. إن كل ما يكسبه من خردواته يشرب به.. يشرب به كحول الاشتعال المنزلي.. يا لمعدته كم تقاوم.. حتما ستخذله وتترك النار تندلع فيه يوما ما».

لحظتها كان شديد التضايق، وهو يعبر آخر نهج «فبريكات الثلج»

المفضي إلى ساحة «مقهى دينار». وأحس كأن مرض الربو أصابه، بل لقد شخص ضيقه، وعسر تنفسه، وحرارة جوفه الحارقة، وتقلّص عضلات صدره، والعرق اللزج الكثير الذي يتفصد بكيفية مسترسلة مزعجة من جسده كلّه، وأيضا سكون الجوّ الخانق، بأنه مقدمات الربو اللعين.. لكن في اللحظة ذاتها، بدا له أن الربو أصاب كل المدينة، حتى السياح الجزائريين، وهم الذين غدوا يكثرون بشكل هائل انطلاقا من السنة الماضية، سنة 1979، وخاصة في الصيف، جرّاء التسهيلات التي أقرّها مسؤولو كلتا الحكومتين، الجزائرية والتونسية، للتقارب والتعاون بين البلدين الشقيقين، لدرجة يشاع معها أن المرور عبر حواجز القمارق الحدودية أصبح يتم باستظهار بطاقة الهوية فحسب. ! ومن دلائل ذلك هذه الزيارات العائلية والجماعية الموسعة التي أصبحت تفد إلى تونس للسياحة والتبضع.. وإبراهيم حينما لاحظ أن الربو أصاب المدينة وزائريها، فهو قصد أولئك الجزائريين الذين لم يظفروا بالحصول على أسرّة في النزل الشعبية الرخيصة المعبأة، صيفا، من الداخل وفوق السطوح بالنزلاء، وأيضا آخرين متعودين على المبيت في الشوارع وفي السيارات الملاكي، وفي الحدائق العمومية القليلة في مدينة تونس، ولهم رغبة في تمضية أطول فترة هنا، لكن لا تسعفهم عملاتهم الأجنبية المحولة المسموح بها حكوميا، والتي لا تتعدى ثلاثين دينارا بالنقد المحلي، حسب واقع عام 1980، وهذا المبلغ لا يخوّل لواحد منهم تمضية ليلة بنزل مما يقيم به السياح الأجانب من غير العرب العاديين، ولكي يتدبروا أمرهم فإنهم يجلبون معهم علب التبغ الأجنبي المصنوع بالجزائر وعلب سجائر (المقار) ليقايضوا بها، في نهج زرقون، بنطلونات الدجين والقمصان المستعملة المكوية، ويشترون علب المصبرات، خاصة الهريسة التي تكون تسعيرتها التونسية منخفضة. والشباب منهم يبيع ساعاته اليدوية وسلاسل عنقه الذهبية لسماسرة سوق النهج المحترفين، لينفق في تجواله وفي اقتناء السلع والهدايا.. وهذه القفاف المفتوحة والحقائب الجلدية الموضوعة أمام وبين أرجل

أصحابها الجزائريين الذين دوّختهم الحرارة الليلية وهم يتنفسون بأفواههم في لهاث. . هذه الحالة هي التي استرعت انتباه إبراهيم وجعلته يعتقد أن الربو أصابه وأصاب المدينة وهذا الجمع المنتشر حلقات أمام مقهى (دينار) وخلف (باب فرنسا) العتيق، بعضهم خيّر كراسي المقهى ليستلقي حافيا، فاغرا فاه مرتخيا وملتويا، وبعضهم قرفص على امتداد الحيطان المتعرجة المتلاقية، وبعضهم تمدد فوق المقاعد الاسمنتية المبنية جديثا، وبعضهم اعتلى السياج الجداري الذي جعل على هيئة أصص زرعت فيه نباتات خضراء وأزهار، والقليل من العائلات جالسات هنا وهناك، تميّزهن النسوة الملتحفات بالسواد، وقد غطت الأرضية التي يوجدن بها بقع سوداء سائلة، كأنها زق البطّ السارح في المستنقعات البرّية، بفعل بصاق الرجال الجزائريين الذين يضعون بين شفاههم السفلى ولثّاتهم، لفائف التبغ المسحوق وينصقون بكثرة.

لا يمكن أن أبقى هنا، قال.

ومضى منقبضا يكركر قدميه، محدثا فرقعات مصفّقة ذات ايقاع متكرر ممدود، حين يسحب مداسه بتطويل وتراخ على الرصيف، وحين يطرق به أسفل قدمه، وسط نهج (فرنسا) المفضي إلى شارع الحبيب بورقيبة الرئيسي. . كان من عادته عندما يضيق به الحال في الليل، ويكون وحيدا، ويكون غاصا بالملل والفراغ والضياع، وقد عاف كل شيء، حتى المطالعة التي أدمن عليها بعد فشله في اجتياز امتحان الباكالوريا، وانشأت له علاقة مع الجرائد الأسبوعية الشعبية المسلية الهابطة، ومع روايات سلسلة (عبير) الغرامية، وكذلك مع جريدة المعارضين المستقلين «الرأي» التي يحرص على اقتنائها كل خميس، رغم ارتفاع ثمنها، فهي تبعث فيه احساس المطلع على خفايا الأمور السياسية، بما تنشره من أخبار كواليس السياسة، وبياناتها ومواضيعها التشهيرية المتشنجة النائحة التي تتحدث عن الأزمات بكتابات تفتتح «ببادىء ذي بدء» و«نحن لا نشك» و«كل الدلائل تشير» و«من

البديهي» و«مما لا شك فيه أن الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والتنمية هي الرهان الذي على تونس أن تكسبه» و«اليسار الماركسي هو عدوّ المشاعر الاسلامية. . . » و«إن السفلية الظلامية عدوّة الفكر والمكتسبات الديمقراطية والحريات» و«إن ضرورة تشييد صرح المغرب العربي الكبير تفترض بادىء ذي بدء. . » وقد علقت عبارة بادىء ذي بدء بذهن إبراهيم، ولقيها تقفز إلى قلمه وتحتل بداية الورقة، في الثلاث مرّات، التي كتب فيها مقالاته القصيرة المهزوزة التي امضاها بالحرفين الأوّلين من اسمه، لخوفه من عاقبة تشهيره وتنديده بما يقع في شركة مقاولات البناء التي يعمل بها، وقد أرسل هذه المقالات إلى جريدة (الرأي) لكنها أبدا لم تنشر ولم يقع حتى الاشارة إليها في ركن القراء. . واغتاظ من الاهمال الذي أظهرته له جريدته المحبوبة، وعزم على النشر في احدى الجرائد الأسبوعية الشعبية، وتم له ذلك في صورة قصيدتين عفويتين ساذجتين عن العروبة وفلسطين، وموضوع آخر استنكاري عن خلاعة النساء في هذا العصر افتتحه ببادىء ذي بدء، وقد أمضى هذه الكتابات باسمه الكامل، وولّد عنده هذا الأمر زهوا وانتشاء ما لبثا أن خبيا بفعل لامبالاة زملائه والعمال في شركة مقاولات البناء حين أطلعهم على ما كتب. .

قلنا: إنه كان من عادته عندما يضيق به الحال في الليل، ويكون وحيدا، ويكون غاصا بالملل والفراغ والضياع، وقد عاف كل شيء، تتملكه رغبة عارمة غامضة في التحادث مع أحد، أي أحد. . والصيف يوفر له الكثير من الجزائريين الراغبين في الحديث والتعارف مع التوانسة. وقد كان لإبراهيم أسلوبه الخاص في التعارف، فهو يختار العائلات التي يوجد ضمنها بنات أو نسوة، وهو في الواقع يتهيب النساء حين يكن مجتمعات بدون رجال، لذلك يختار واحدة من العائلات المختلطة، من اللائي يسترحن على كراسي مقهى (دينار) أو المقاعد الاسمنتية خلف (باب فرنسا)، ويتخذ مجلسه حذوها، بل الأحرى جنب أحد الرجال منها، ويحاول أن يظهر بمظهر غير مكترث، قد اضطر

للجلوس لانعدام مكان آخر، وحين يهدأ اضطرابه الداخلي الذي يلازمه في كل تلاق مع الغرباء، والذي يشبه اضطراب من يراود امرأة محصنة، ينتقل إلى توسل أسلوبه غير المباشر في استلفات انتباه جاره في الجلوس، كأن يلاحظ، بصوت مسموع، حين يرى سلوكا عابثا شائنا أو خشنا لاحد المارة :

- إن الهمجية من طبائع هذا الشعب الفاسد.

أو يقول بتبرّم وتعجب محكمي الافتعال مشيرا إلى المارة :

- هؤلاء العرب لا يحسنون حتى استعمال أرجلهم في المشي. . اللعنة !

يقول هذا وكأنه يفصح عن تبرئه واختلافه لما اعتبره خللا في العابرين، وهو في ذلك يحاول الايحاء لجاره وعائلة جاره أنه لا يشبه الآخرين، ويتمتع من دونهم بطبائع راقية، علّه بهذا يكسب اطمئنانهم إليه، أو لعلّ أحدهم يوافقه ويصدّق على كلامه ببعض العبارات الشاتمة، لتكون مقدمة للحديث. . وإذا لم تصل توقعاته إلى هذا، فإنه يبادر، وقد حسب أن الألفة قامت بينهم بجلوسه القصير قربهم، إلى القول الاستفهامي :

- الأخ جزائري . . ؟!

وما أسهل أن يتلو الحديث والتعارف هذا السؤال، ويجتهد إبراهيم في تقليد تلك اللهجة الجزائرية الحاسمة المضغوطة، الهجينة بفرنسيتها وعربيتها الغريبتين اللطيفتين، ويحلو له التبسط في الحديث السياسي عن تونس وعن البلاد العربية، بكلام عام دارج، ويتباهى بأنه يعرف الكثير عن المعركة المحتدمة القائمة بين العروبيين والفرنكفونيين في الجزائر، وكيف أنه يناصر العروبيين رغم أنّهم لا يستأهلون، وإذا وجد قبولا ومجاراة من طرف جيرانه، فإنه يخوض وإياهم الكلام بنقمة وحقد على حكومتي بلديهما ويشتمون العرب الذين باعوا فلسطين وبيت المقدس، ويتحدثون بحنين عن الاستعمار الفرنسي، على أنه أفاد العرب أكثر من هؤلاء الحكام.

«ما هذه الليلة الجهنمية» قال.

قال ذلك وهرول، كمن باغته طارىء. هرول مسافة قصيرة لا تتعدى عشرين مترا وتوقف، توقف فجأة متنبها حذرا، توقف متراجعا خطوة، توقف متوجسا منقطع النفس.. لقد أبصر السيارة الرمادية، الغامقة الضخمة، المشبك زجاجها بالحديد، سيارة الأمن العام، الرابضة أمام سفارة فرنسا، يحاذيها ثلاثة أعوان بوليس ببنادقهم الطويلة ذات المظهر المخيف الذي يسبب الارتجاف والأذى، توقف وتحسس سرواله الدجين القصير... «ما هذه الورطة..! ربما يوقفونني ويضايقونني، يضايقونني ببلادتهم وأسئلتهم الغليظة وسبّهم ربي.. يقال إنهم أصبحوا يقبضون على الرجال اللابسين السراويل القصيرة.. الحكومة أصبحت متدينة وضدّ العرى وكشف العورة، الدين يحدد عورة الرجل من سرّته إلى الركبة.. والنساء كلهنّ عورة، أي طرف من أجسادهن عورة، أصواتهن عورة، رائحتهن عورة.. ومن نظر إلى فروجهن يصاب بالعمى يقول الغزالي حُجّة الاسلام.. الحكومة عميت! لماذا لا تقبض على كل النساء وتسجنهن أو تعدمهن.. ماذا يهمّني أنا.. أنا لا علاقة لي بالنساء.. حتى سامية مسميتي، إذا استمرت الأمور على هذا المنوال فلن أتمكّن من الزواج منها، فلتعدمهن إذا أرادت.. لماذا تطبق الدين على عورة الرجال وتغفل النساء.. حكومة تكره الرجال ولا أدري السبب. !» وهمّ بالتراجع على عقبه، وتفادى الالتقاء مع أولئك الاعوان. لكنه لم يفعل، وبتصميم متحدّ واصل السير، ليس في وسط الطريق، بل حاد إلى الرصيف الآخر لشارع الحبيب بورقيبة، موفقا بين عناده المخاطر وارتعابه من البوليس، رغم أن خفقان قلبه كان له وجيب مسموع، ورجلاه كانتا ثقيلتين، وجسده كان متيقظا توارت حرارته وانحطاطه، وطريقة تنفسه أصبحت منتظمة سريعة مبتورة، كان شبه ناشط، بحيث لم يعد يشعر بضيقه ولا بوطأة الجو، كان كأنه يخوض مغامرة...

- يا إبراهيم.. إبراهيم...

حين طرق النداء المرتفع سمعه، كان مثل نائم دلق عليه ماء فاستفاق هلعا، انتفض حقيقة، وكاد يتجمد، وكاد يجري، ، لو لم يبد له آخر الصوت غير غريب. .ورجع له عقله مخطرا أن أعوان البوليس لا يعرفونه فكيف ينادونه باسمه !؟

وتلفت ناحية مصدر الصوت :

- إنه سليم !

لفظ الاسم بتفاجؤ ودهشة ودار، دار باتجاه سليم الذي كان يجلس على مقعد اسمنتي مثبت خلف سياج نصب ابن خلدون في بداية شارع بورقيبة.

ابن خلدون كان يبدو في رسمه الفولاذي الوثني الذي ينعكس عليه ضوء الشارع، مرتفعا ترتسم عليه الهيبة المتجهمة الكثيبة، وكانت الساعة الحادية عشرة والنصف، وسليم كان يضع ساقا على ساق، وظهره الطويل مائلا ومنزلقا بانهاك على رافد المقعد، ويده اليمنى ممسكة كتابا مغلقا، وكان يدخن. . سليم دائما هو هكذا، متشردا مفلسا جائعا لا تفارقه الكتب. منذ كان زميلا في الثانوي لابراهيم، وهو آفة كتب. كان صديق المدرسين ومبهر الفتيات، كانت التلميذات تتقرّبن إليه وتطاردنه رغم فوضى شكله الخارجي التعب. كان ذكيا ولامعا ومحتشدا بالمعلومات والمعارف. ذهنه صاف مرتب حاضر البداهة متفوق. لا يستعصي عليه شيء ولا يرفّ له جفن أمام المدرّسين ولا الامتحانات، وكان يقول عنه أستاذ الفلسفة إن له وعيا مبكرا. وسليم كان عصبيا وملحدا، ويجاهر في أوساط زملائه بالالحاد. زملاؤه كانوا يرمقونه بنظرات هامسة يمتزج فيها الخوف بالتحفظ بالاكبار بالبطولة. إبراهيم كان أشدّهم خوفا واحتراسا من جرأته وتفوقه الوقح اللامعقول، وطريقة حديثه التي كانت برأيه غير مناسبة. لم يكن يقيم معه صلات ولا علاقة، كان يتفاداه ويتلصص على حديثه وشروحه للدروس بين رهط من أصحابه عند كل نهاية حصة. . . المرّة الوحيدة

التي أحرقته فيها الندامة لانه لم يصاحب سليم ولم ينتم إلى جماعته، هي فترة التحضير لامتحانات اجتياز الباكالوريا.. هو لم ينجح، وكل الذين ذاكروا المقررات المدرسية مع سليم نجحوا، ما عدا عبّاس، صديقهم المشترك الوحيد، الذي أصيب بانهيار داخل قاعة الامتحانات، واختلط عليه عقله، وبدا وقد تمكّنت منه لوثة هذيان وهوس شديدة، جعلت جسمه صلبا وعينيه حاميتين جاحظتين، وهو يقذف بكلمات حمقاء مجنونة، ولم ينجح... وناحت أمه وندبت وجهها حين أدخلوه مستشفى الأعصاب.

ومنذ سنة ونيف، عندما انتدبت شركة مقاولات البناء إبراهيم كناظر عمّال، وانتقل بالسكنى من بلدته الجنوبية إلى العاصمة تونس، أصبح يتقابل مع سليم، بعد أن خرج هذا الأخير من الحبس. أصبحا يتقابلان وأصبحا شبه صديقين. وأخبره سليم كيف سجنته الحكومة ومجموعة من المناضلين الطلاب الاشتراكيين وهو في السنة الرابعة، تعليم عال، قسم علم اجتماع. السنة الأخيرة التي كان مهيأ فيها، بعد شهرين، للتخرج والحصول على الاجازة. سجنته سنة ونصفا، وهو الآن بدون شهادة علمية تستغله المدارس الحرة التي تعلم التلامذة الفاشلين المطرودين وتبتز فلوسهم دون إفادة ودون نتيجة.. وقال له إنه يدرّس بنظام الساعة، وأن مردود عمله لا يكفيه الانفاق على عيشه اليومي، وأنه بلا مقر سكنى قار.. لذلك استضافه إبراهيم في ليال متفرقة متباعدة في تلك الغرفة بوكالة «مرزوق»، وقد أدرك أن سليم لم يتغير، فمازال صاحب ذهن وقّاد وأفكار ساخنة، فقط أصبح جسمه أكثر ضمورا، وعيناه غرقتا أكثر في محجريهما وصارتا كأنهما في كهف يضفي ظلامه على بريقهما توهجا وحيوية متخفية، خاصة عندما يكون سكرانا، وقد أصبح بعد السجن يسكر، وأمسى كتوما ومتحفظا بعض الشيء. فلم يعد يفكّر بصوت مسموع كما كان سابقا، ولم يعد يخوض فيما يعرض عليه، كان يظهر عليه التوجس والحذر والغموض، وكأنه ينطوي على أمور مهمة وخطيرة، أصبح يلتوي في الكلام ويزخرف

ألفاظه بعبارات شبيهة ببادىء ذي بدء، وكان إبراهيم يحدس أنه يخفي عنه أشياء مريبة، كأن يكون مثلا يفعل في السياسة أو مرتبطا بولاءات لأحزاب سرية. وكلمة السياسة كانت تبهر أنفاس إبراهيم وتجعله مشدوها يحس بالمخاطر، وتورد إلى مخيلته صورا نافرة لوجوه في مجلس النواب مع وجوه وزراء حكومة مع فرق عسكرية مع حبال مشانق في أفلام الكاوبوي مع الحقائب الدبلوماسية والسيارات السوداء الفارهة الطويلة التي يفتح أبوابها، في لمح البصر، رجال مكتملون أنيقون متأهبون في توثب، يحيطون بشخص بالغ الأهمية.. لذلك فإن ما حدسه خلق عنده شعورا بالرهبة والخوف وحبّ التقرب تجاه سليم..
«لربما يصبح شخصية هامة وأستفيد.. وربما تكون علاقتي به مثيرة للشبهات وتجني عليّ.. عموما هو ابن بلدتي وزميل دراسة سابقا، وهذا ما يجعل علاقتي به مقبولة وعادية وليس فيها ما يريب.. ولنفترض أسوأ الاحتمالات.! فماذا سيفعلون لي ؟! ليفعلوا.. ليفعلوا ما يشاؤون فليس عندي ما أخسر...»

حين عرض سليم سيكارة على إبراهيم الذي صار الآن يجاوره على المقعد الاسمنتي، سأله بصوت متكاسل ممطط :

ـ ماالذي أخرجك في هذه الساعة ؟

أجابه بكلام يسري فيه التأوه والزفير قائلا :

ـ والله روحي قربت تطلع مني.. لم أعد أتحمّل.. ذلك الجحر الذي أسكن فيه سيقتلني.. ما هذا القيظ القاسي.. أوه ماذا دهى الرب حتى يعجّل باحراقنا في هذه الدنيا وليس غدا...

قال عبارته الأخيرة، وتطلع بنظرة تبطن الاضمار، إلى وجه سليم، علّه يرى تعقيبا أو اعتراضا على ما نسبه إلى الربّ.. لكن سليم بدا لا مباليا وشاردا في دوخة، فهزّه برفق قائلا :

ـ ألا تسمعني ! قلت لك إن هذا الطقس الجحيم وذلك الجحر الذي أسكنه هما اللذان دفعاني للخروج الآن.. ذلك الجحر الذي

أتقاسمه مع الحشرات والبعوض.. إنها قسمة ضيزى.. إني تعب وسألتهب.. لم أعد أجد حتى شربة ماء.. ماء الحنفية ساخن كالبول.. خرجت كي لا يقع لي مثل الليالي الفائتة.. البارحة بالخصوص لم أنم ولم أغف مطلقا.. ليلة مسعورة هاج فيها البعوض والبق والذباب وهيّجوني معهم حتى ندبت جلدي.. ندبت جلدي واستحال عليّ البقاء في الفراش، استحال عليّ البقاء في الفراش واشعلت الضوء، أشعلت الضوء وتململ عبّاس البائت معي، تململ عباس وأفاق وحكّ عينيه وقال بصوته الناعس: اطفيء الضوء. وعاد إلى النوم، عاد إلى النوم وأنا لم أنم ولم أطفيء الضوء وقرفصت على الأرض أتفرّج على البعوض يمصّ دم عبّاس.. وعبّاس يحك وهو نائم.. والبعوض يهاجمني وندوبي تحرق وتدعوني إلى مزيد تمزيق جلدي.. تمزيق جلدي ورائحة مبولة عبد الله قش تطوق الهواء، تطوق الهواء وأنا سأجنّ، سأجنّ ويطردونني من الخدمة، سأجن وهذا الوضع يطبق عليّ، يطبق عليّ ويعتصرني، يعتصرني ويضغط على مخّي لينفجر، يعتصرني ويسيل دمي من جروحه وأنا قاعد، أنا قاعد وأغمس سبابتي في بقع الدم وأكتب.. أكتب حتى الصباح.. حتى الصباح وقد حصلت على ما يؤلف قصيدة...

صوته المرتعب ذو الكلمات المزمومة المتزاحمة الآخذة بخناق بعضها، قد تركت سليم شاخصا وهو يستمع، لا ممّا تضمنه من أخبار، التي لم تظهر له على أنها غريبة أو خارقة للمألوف، بل من طريقة إبراهيم في التلفظ، التي توحي كأنه يعوي أو ينهق أو يزأر. نبرة لهجته المكظومة كانت صدى لصوت حيواني أعجم مكمم، مجمع من أصوات عدّة، خطفت ذهنه هذه النبرة وأيقظت فيه تأملا يتمعّن سرها ويلاحق كنهها...

وكان إبراهيم يدفع تنفسه دفعا، وكرشه الصغيرة تهتز بتتابع ملحوظ جاعلة أزرار القميص الأصفر الثلاثة المقفلة من حزامه إلى بداية ضلوع

صدره، مشدودة فمرتخية فمشدودة فمرتخية... حين أردف بصوت منخفض متردد يزدوج فيه التوسل بالالحاح :

ـ أسمعتني ؟! ألا تريد أن أطلعك على ما كتبت ؟ ألا أقرأ عليك قصيدة البعوض... لتقل لي رأيك فيها.. أنت تفهم في هذه المسائل.. أليس كذلك ؟ ـ قال ذلك بشيء من التودد والاطراء ودموعه توشك أن تطفر.

ـ هات.. شرط أن لا تطوّل...

عندما أخرج إبراهيم ورقتين بيضاوين مجعّدتين متسختين من جيب سرواله الخلفي كان يشعر بالحيوية والحبور والارتجاف الخفيف والترقب، كأنه مقبل على امتحان.. وتطلع إلى سليم قائلا :

ـ بالله غض الطرف عن الاخطاء اللغوية، ولا تستوقفني عند القراءة، إذا كانت لك ملأحظة فاستبقها إلى أن أنتهي... لن أطيل..

وبدأ بصوت متلعثم متعثر خجول يتوضح ويصفو ويثق في حماس بعد كل سطر :

حيُّنا الشَّعبيُّ مزدحم بكائنات الليل
والليل عندي يكتفي بالبعوض الوقح ليؤرّقني
أزيزُ هذي الحشرات المغيرة
يجعلني أسهر على وشوشتها الطانة
متحفزا، أخبط في العتمة بكلتا يدي
علّني أحمي جسدي...
وحين يكون الفجر الاغبش ذاهبا للانقشاع
وفروخ الطير الترابية اللون
التي تعشّش في جحور الحيطان
بصوتها النافر

كما نقنقة الضفادع تصرخ :
لا نـــوم !
وتعلو جلبة جيراني المبكرين :
لا نـــوم !
(تسرقني اغفاءة)
وعندما أفتح جفوني الجافة عن عينين حارتين
أبصر بقع دم قانية على عنقي وذراعي
وبضع بعوضات مقتولات تلتصقن بجلدي
إن خطيئة تلك الجريمة يحملها لي المسؤول
في شكل توبيخ على تأخيري عن مواعيد الدوام
ها أني أقضي ساعات العمل
وفي ذهني توبيخ لاذع
قد يصرفني عن بثور لسعات الليل اللاذعة...

وأنهى القراءة بتشديد وتطويل لام اللاذعة، ونظر بلهفة وطلب إلى سليم، إذذاك كانت بوادر نسمة تلطف الجو وتضفي برودة على عرق ورطوبة الأجسام، وقد استقبلها الصديقان بآه تلذذ، عقبها قول مداعب هازىء لسليم :

ـ إن ما كتبته معقول.. لكني أرى أن الأجدى لو حاربت البعوض بالمبيدات، بدل هذه التعويذة الهجائية التي لن يكون لها أي أثر عليه... ـ ورمق إبراهيم بنظرة يحاول أن يستشف بها فعل كلامه فيه، وأضاف بتوجيه ونصيحة مربتا على كتفي صاحبه : لا تقابل كلامي بالامتعاض، ولا تشح وجهك هكذا، إني أمزح معك... وإذا كنت ترغب في سماع رأيي، فهو أن ما كتبته واعتبرته قصيدة لا يخلو من طرافة، لكن موسيقاه قليلة وهذا ما يضعف من شاعريته.. كما أن لفظة (عندما) الظرفية، يبدو أنها مقحمة ومحشوة، لو تحذفها ليصبح البيت :

«تسرقني اغفاءة/ وأفتح جفوني الجافة عن عينين حارتين.. الخ».

قال (الخ) باستخفاف ونفاذ صبر، وقد كان يحلم ويلوي ويزم شفتيه حتى أن صوته بدا كنغمة المعلمين المتكلفين الذين يحرصون على الظهور بمظهر المترفعين مكتملي المعرفة، والذين يحكمون لفظهم وسلوكهم بطريقة متزنة مترفعة متأففة، لحدّ يخيّل معها إلى التلامذة الناشئين أن معلميهم ليسوا بشرا وليس لهم أعضاء جنسية شنيعة المظهر، ولا يقرفصون على المراحيض، مؤخراتهم منبجعة وهم يتبرزون الغائط.

إبراهيم كان مصغيا وغير راض، وأحس أن كلمات صديقه جافة ومتعجرفة في ابتذال، كما لو أنه يصحح له فرضا مدرسيا. وخيّر الصمت، ولم يتكلّم معقبا ولا مناقشا... وكاد الصمت أن يثقل بينهما، لولا مبادرة سليم بالتربيت على كتفي صديقه قائلا:

ـ لنترك الشعر.. يا رجل لم أرك منذ مدة، فاخبرني كيف أمورك كيف حال الدنيا معك؟

ـ إني تعب كما ترى، وانتظر فرج الله.

ـ إنّك تخطىء! من قال لك ان لِلّه فرجا. ! أبحث لدى النساء تجد ضالتك ـ وضحك ـ

ـ سأذهب.. لست في حالة بمستوى مزاجك الرائق ولا تفلسفك المتهكم (وكاد يقول البذيء المتزندق).

وقام إبراهيم من على المقعد، قام في ضيق وتبرّم وانزعاج، وهمّ بالمشي، لكن سليم أوقفه حين أمسكه من معصمه وقال:

ـ اجلس.. أضايقتك؟ لم أقصد ذلك.. أرجوك أن تبقى، إني في حاجة إليك، وإذا كنت مصرّا على الذهاب، فخذني معك... أنا في الحقيقة كنت سأجيئك إلى (الوكالة) لو لم نتقابل بهذه الصدفة، كنت في حاجة إلى مكان آوي إليه هذه الليلة وفكّرت فيك. قل، ألا تأخذني معك لأبيت الليلة عندك..؟

- ... (صمت واعترته حيرة)..
- لماذا أنت صامت.. ألست بمستطيع ذلك؟
- كلّا ليس الأمر بهذا الشكل...
- فهمت إذن. ! هل أن جلغم معك في الغرفة؟
- ماذا تعني بجلغم؟
- أقصد عبّاس، أهو هنا في العاصمة.. أهومقيم معك؟
- جلغم، جُلْغُمْ.. نعم هو مقيم معي.. لكن لماذا تسميه «جلغم»؟
- لا لشيء.. سوى أني أرى أن هذه اللفظة تنطبق عليه..
- وهل تعني شيئا لفظة جلغم هذه؟
- لا! لا تعني أي شيء.. إنها كلمة فاسدة، حروفها غليظة مشوكة وقبيحة، لها وقع سيء عند السماع، هذا فقط، وقد خطرت على بالي الآن، حين تذكرت عبّاس.!

تمتم إبراهيم مرددا الكلمة بتفاجؤ، مبهوتا بهيئتها، جُلْغُم.. جلغم.. وأثارت حروفها الغليظة في مخيلته مشهدا مفارقا عجيبا، يقوم فيه شخص بملامح جلف وليونة مخنث وخرا مجنون متيبس على كفليه المشعّرين المخيفين، يقوم، في شكله الطائش المهبول، بمداهمة نزل سياحي ثلاثة نجوم، وهو ينهق، فتقفز النساء الأوروبيات الشقراوات ذوات القدود المياسة، المنشآت انشاء بلا حشو، المستلقيات على الكراسي الطويلة في مواجهة الشمس، بنهودهن العارية، ومايوهاتهن التي يطل منها شعر العانة، الشعر الأشهب المبلول، القهوي، مذعورات فزعات، صائحات، رافعات الأيدي في دفاع، وأثداؤهن المتدلية المترجرجة المُتَلَطْلِطَة، كمثل جرائب جباة الضرائب البلديين في أسواق الحمير والبقر والبيض والخضر والروبافيكة، ينزف من هذه الأثداء حليب المرضعات الأبكار المحلى بالدم الخفيف ذي المذاق الأسر.. وينقّط أرضية المسبح المجلزة في الشافة، والمعشوشبة اصطناعيا في الحواشي.. فتنبجس تاليا رؤوس قضبان فذة تصب سوائل لبنية خاثرة، فيتحلل من فوره جسم الشخص المتهور المهبول

المداهم، وتنتشي السائحات مجنحات كالملائكة...

دغدغ هذا المشهد الذي يكتنف اسم جلغم أعصاب إبراهيم، وتملكته نوبة ضحك قوي مدوّ، سرعان ما انتقل عدواها إلى سليم، وأصبح الصديقان يجهشان بالضحك وقد اغرورقت عيونهما بالدموع، ومن خلال الشهقة الأخيرة، قال إبراهيم بصوت تطغى عليه نهنهة الضحك :

ـ جلغم.. جلغم.. كيف ينطق. ؟ لله درّك في هذا الاسم العبقري يا سليم!

ـ قل جُلْغُم

ـ آه، جلغم! أتظن أن اسم جلغم يليق بعبّاس؟

ـ إنه يواتيه..

ـ نعم يواتيه. ! أتعلم يا سليم أن عبّاس ـ المعذرة ـ لنقل من الآن جلغم، إن جلغم منذ خرج من المستشفى العصبي، بعد أن أمضى كذا شهرا، بعدما وقع له يوم امتحان الباكالوريا من انهيار، وهو يحاول منتهى جهده أن يظفر بعمل ليعيش، لكن الأبواب جميعها أوصدت في وجهه، لم يجد أي عمل في أي مكان. وهو من ذلك التاريخ بطّال مفلس وحالته لا تحتمل.. وعندما بلغه أني هنا في العاصمة واشتغل، أتى إليّ، وبحث عني إلى أن التقاني.. كنت أنوي التملّص منه، وصرفه عني، لكنه أطبق عليّ... تصور ذلك الاحراج وذلك الخزي الذي يصيبني في البلدة لو دفعته ولم أقبله. ! صحيح هو صديقنا وزميلنا أيام الدراسة، فضلا عن كونه ابن بلدتنا.. لكن ماذا أفعل أنا بكل هذه الوشائج والقرابات الواهية التي لا تسبب سوى المتاعب.. في البلدة لا يفهمون ظروفي التعيسة القاسية، لا يفهمون مثلا كيف أني أكتري فراشا واحدا، أي مساحة سرير، في غرفة بوكالة قديمة خربة، رائحتها مدوّخة تهدّ الجسم وتسكنه بالروماتيزم إلى الأبد.. وإن صاحب الوكالة يمنع علينا استقبال حتى الزائرين أو السائلين.. وهو

يضيّق علينا ويراقبنا باستمرار... أهل البلدة، أهل جهنّم، لا يعرفون إلا رمينا بالتنكّر لهم حين أصبحنا نعمل ونقبض الفلوس شهريا ونتمتع.. يا لها من متعة أيها الحمقى الغارقون في الغيبوبة.. هل تصدّق يا سليم أن عباس عنده حظ.. فهو عندما جاءني، في المرة الأخيرة، منذ عشرة أيام، وجد الفراش الثاني في الغرفة خاليا.. كما وجدته أنت عندما بتّ معي في تلك الليالي المتفرقة.. هذه المرة كان جاري في النوم قد أوفدته شركة حفر الأسس العميقة، التي يعمل بها، إلى جزيرة جربة للاشتغال في حضيرة بناء نزل كبير، لفترة قد لا تطول. لذلك ترك الفراش على ذمته.. وعبّاس الذي يستفيد من الفراش خلسة، لو يضبطه صاحب المحل لاقتاده إلى أقرب مركز للشرطة وأنا معه.. بالفعل لقد أصبح عبّاس عبء شقاء هائل يجثم عليّ، إنه يضايقني ويرغمني على مشاركته تعاسته الملعونة، ما ذنبي أنا حتى يضفي على همومي مأساة بطالته وإفلاسه وجوعه.. هل أنا تسببت في خلقه لأتحمله.. ليرمي نفسه على خالقه، ألم يقل الرب : «وما من دابّة على الأرض إلا على الله رزقها».. أين رزق هذه الدابة التي أقاسي منها.. ؟ ألم يحسب حسابها الله.. وما شأني أنا بهذا.. ؟ فليذهب وليذبح والديه الساقطين اللذين انجباه، ما كان ينبغي ترك هؤلاء الفقراء العدمين يتزاوجون، وإن كان لا بدّ من ذلك فيجب خصيهم كي لا يكون نسلهم المتشرد عبءا على الآخرين أو خدما ذليلا للأسياد، ينبغي اجتثاث بذورهم من جذورها.. ليذهب ويرمي نفسه على الدولة.. ما شأني أنا.. لينتقم من أي أحد كان سببا فيما هو عليه.. المهم أن يعفيني منه.. ما هذه البلية، منذ أن التقاني هذا الدابة الزعجة، هذا الجلغم السيء، وهو يضيّق عليّ عيشي الضيق،، ما رايك، ألا ترى معي ذلك يا سليم؟

ـ في الحقيقة معك حق. ! لكنك تغالي شيئا ما، فلا تنس أننا جميعا ضحايا، عبّاس وأنت والجميع وحتى أنا، ضحايا هذا الوضع الفاسد المعقّد، ضحايا هذه الأنظمة التابعة للامبريالية الامريكية، ضحايا

النهب المنظم الذي تمارسه البورجوازية الكمبرادورية...

ـ ما معنى كمبرادورية. !؟

ـ هي البورجوازية المتذيلة، أي التابعة، غير الوطنية، المرتبطة بالرأسمال الأجنبي، والتي تعمل كوكيل للشركات الأجنبية الكبيرة، المتعددة الجنسية، ولحساب جهات استعمارية جشعة وسارقة، ضحايا ارتهان بلادنا للتقسيم الدولي للعمل، ضحايا تبديد مواردها وخيراتها على ترف خيالي لمسؤولين كبار لا يمتّون بصلة إلى الوطن، ضحايا التخلف، ضحايا قرون عدة من الخرافة والجهل والغيب والمعجزات وخوارق العادات ووهم الأولياء الصالحين ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقكم وإياهم.. ماذا أقول؟ هذه الأمور مجتمعة وزيادة، هي سبب بلائنا وتعاستنا.. هذا الشعب متخلف وجاهل وتافه، عندما حاولنا أن نصلح أحواله لم يكترث لعملنا، وقد أدخلونا الحبس. أنا سجنت عاما ونصفا، وهذا الشعب الغائب المازوشي البليد الضائع لم يتحرّك، لم يساندنا، لم يسمع اطلاقا بنا، هو منجرف سريعا إلى الهاوية، إلى حتفه، ماذا نفعل له؟ هذا قصارى جهدنا قدمناه له، قدمنا له نضارة شبابنا.. لم يفهمنا ولم يقدّر ذلك... وها أنت ترى كيف أن حالي لا يسرّ لا الصديق ولا العدوّ... ها أني أمامك ضائع بلا مهنة قارة محترمة، ولا سكن، أتساوى تقريبا معك.. ثم حتى لو حاولت التقرّب من الحاكم، فهو لن يطمئن إليّ، وسيلازمه ذلك الارتياب من تاريخي النضالي السابق... اسكت يا إبراهيم، لا تلهب شجوني، غيّر هذا الموضوع أرجوك...

إبراهيم كان قد سكت قبل أن يطلب منه، اسكتته جملة: «حتى لو حاولت التقرب من الحاكم، فهو لن يطمئن إليّ». هذا التصريح استقرّ في ذهنه، وجعله يعيد النظر في رؤيته لسليم. فصديقه ليس أمامه فرصة ليكبر ويصبح مهما، شخصا له مكانته في الدولة والسياسة، شخصا مختلفا عنه، صاحب سلطة، كلامه أوامر ونواهي مطاعة.

سليم التلميذ الناجح اللامع المتفوق، والطالب اليساري الاشتراكي المناضل الطموح، لم يصل به نبوغه إلا إلى الازدراء والكره للشعب والانقطاع عنه، وإلى ارتياب الدولة به.. الآن يتفطن إبراهيم إلى أن التماع نظرة صديقه قد تكسر فيها ذلك الشيء المميز، ذلك الاندفاع الجسور، وذلك الوثوق والاعتداد المغرور، وبدا له أن لمعانها يشبه بريق عيني كلب مسعور ليس إلاّ. وقد داخله سرور متأثم لما لاحظه من انهداده وما يشبه تساويه معه.. إذ أنه كان يعتقد في داخله، بشكل كامن، أن سليم لو أصبح مسؤولا كبيرا، فهو لن يكون مختلفا في شيء عن المسؤولين الحاليين، عدا في الصفات التي سيخلعها على نفسه وفي المغانم التي سيحوزها، لتجعله ينسلخ عنهم ويستبدل قشرته الشعبية بما يلائم المسؤولية.. التي لن ينتهي إليها عادلا خيّرا متواضعا ونزيها كمثل علي ابن أبي طالب أو عمر ابن عبد العزيز...

ـ قل يا إبراهيم ألا تجلس.. أو فلتتركني أصاحبك لنبيت سويا!

ـ لا أرغب في الجلوس، وقد اخبرتك أن الفراش الثاني في الغرفة ليس بفارغ، إن عباس ينام عليه منذ عشرة أيام كما قلت لك.. وإذا رافقتني فسنلقاه نائما عليه.. إنه يتسلل إلى الوكالة بعد منتصف الليل، وقد أصبح يعرف كيف يفتح باب الغرفة دون مفتاح وينام، ولا أفطن إليه إلا داخلها، إنه يأتي دون مشورتي ويذهب دون مشورتي كأنه شريكي...

ـ إذا كنت متأكدا أنه هناك، فسأذهب معك.. على الأقل نمضي الليلة مع بعض.. لي مدة لم أره، وهي مناسبة لنفذلك ونمازح عبّاس ونضحك عليه قليلا.. لنذهب معا ونبلغه باسمه الجديد.. فلتتخيّل يا إبراهيم كيف سيتلقى اسم «جلغم» الذي سميناه به...

هذا الطقس الليلي الفظ، هادىء جاثم ثقيل، يجعل الاجساد الساهرة في حالة ارتخاء يدبّ فيها الانحلال والفشل ويسري في المفاصل رخاوة فظيعة شالة. ويدفع السكان إلى تشريع الأبواب

والنوافذ واطفاء الاضواء، ويحمل السياح الجزائريين العاديين البائتين في عراء المدينة على التخفيف من ملابسهم إلى حد العري، مباعدين بين أعضاء أبدانهم في وضعية استلقاء صليبية. كما أن بائعي البيض المسلوق الليليين الرابضين في مدخل نهج «القرانة» المجانب لنهج زرقون اطفأوا نار وابورات قازهم وتهيأوا للمغادرة، وقد بان عليهم التعب وسخونة الطقس. وبعد أن تجاوزهم سليم وإبراهيم منتهين إلى غرفة الوكالة لم يلاحظا كائنا في النهج سوى القطط، أو حين اشعل إبراهيم ضوء الغرفة ونطّ فأر صغير مذعور من خزانة الملابس الواطئة متواريا.. على أن الصديقين لم يكترثا له، واتجها بنظريهما إلى السرير حيث يستلقي عباس نائما وقد انبعث غطيطه وهو يعوم في العرق ويهرش بين الحين والآخر،، ثم اقترب إبراهيم منه ولكزه:

ـ يا عبّاس أفق

وأعاد ذلك أكثر من مرة إلى أن انقلب عبّاس على جنبه الأيسر بحركة متشنجة مغتاظة مهمهما كلمة: اتركني.. اتركني، مرفوقة بعبارات بذيئة غير واضحة، رامشا في الآن نفسه طرفي جفنيه... وبغتة قام مستويا هاتفا:

ـ سليم.. سليم أنت هنا.. لم أدرك ذلك. !

ونهض معانقا سليم بحرارة عشرة وصداقة تباعدتا لمدة ثم التقيتا فالتحتما مع ما يصاحب ذلك من ضغط ولهفة وذهول واحساس بالتقصير والجرم. وما لبث سليم أن مسك عبّاس من كتفيه مهدهدا وقائلا في حماس ومباغتة:

ـ أيها العزيز جلغم.. كيف حالك.. إنك يا جلغم تغيّرت كثيرا.. غيّرك هذا الشنب العريض الطويل.. جعلك أكبر من سنّك وأكبر مني أيضا..

ـ «ماذا تقصد بجلغم.. ؟!» وقد جعّد جبينه وقطّب حاجبيه واعترته خيبة وعدم فهم.. فسارع إبراهيم الذي كان مغتبطا وأساريره

منشرحة بالنطق :

ـ اسمك جلغم.. اخترنا لك هذا الاسم.. ألا ترى أنه يواتيك.. ؟!

ـ ما معنى هذه الاهانة؟ ما معنى هذا الاسم المهين.. ما هذه السبّة؟ ماذا تقصدان.. ؟ أنا اسمي عبّاس.. لست «جلغم».! لا حقّ لكما في أن تنتزعا وتفتكّا اسمي.. لست جلغم برغم أني بطال ومفلس، لست جلغم رغم أني أنام عنوة في هذه الغرفة الحقيرة على حساب إبراهيم.. لست جلغم برغم أنكما تآمرتما باحتقار عليّ أيها المجرمان.. برغم أنني جلغم.. لست جلغم..

ـ واشتعلت عيناه بغرابة، وظهر للصديقين أن تلك اللوثة التي أصابته يوم امتحان الباكالوريا قد رجعت إليه الآن بحدّة وعنف وصيّرته يقذف بكلمات حمقاء مجنونة.

الحافلة ذات العجلات الاربع

الى نور الدين بن خضر :
مناضلا مثابرا متواضعا
يعلّمنا العطاء والاستقامة
والشرف والتجلّد

اللعنة على هذا الزحام، ما أشدّه، انهم يتكاثرون كالنمال، يخرجون من حيث لا أدري، يتنافسون في سير ماراطوني، يثبون، لا يحترمون شيئا، اطلاقا، لا الضوء الاخضر، ولا الضوء الاحمر، ولا السيارات التي تتوالى كعربات القاطرة الطويلة بلا انتهاء، يأتون، ويتسمرون حذوي، أكثرهم يصطدم بي، دون اعتذار ينزل نظراته من رأسي الى الاسفلت، ويهزّ كتفيه ارتفاعا وانخفاضا، بحيوانية جحش

يطرد الذباب، أشد ما يغيظني تعثرهم المتواصل، يرفسون حذائي الملمع حديثا، بحوافرهم. جميلة صفة حوافر. بالفعل إنهم بغال. بغال في حالة ركض دائم وانتظار. انيّ أدرك عميقا بلاهة الانتظار، التي تغشى احداقهم، يديرون أعينهم في مغاورها بطريقة فاترة لا توحي بشيء، ليس فيها شيء من الحزن والسرور، بليدة وباردة، كخريف متلبد بلا سمات الفصول. أميل، وأسند كتفي اليمنى لصاري شركة النقل العمومية الذي يحمل أرقام خطوط الحافلات، وضعي هكذا يسمح لي بالانصراف عن هذه الوجوه ويمكنني من الاشراف على آخر الشارع، الذي يتهادى في مجاوزة قاهرة للبصر، كي أرصد بروز الحافلة في رأس الطريق، يحلو لي أن أتأملها ببطء، وهي تدب الهوينا، تماما كقملة في رأس أخي تكتشفها الجدة في زهو، وهي تسلك مفارق الشعر الأكرت.

حتما ستأتي في السادسة.. السادسة والربع ولم تأت، السادسة والنصف ولم تأت... ارتفعت درجة غضبي، ثم هبطت، اشعلت سيكارة، قضمت مصفاها، ومضغته الى آخره، ثم بصقته، أتمنّى اخيرا ان لا تأتي، لأرى هذا الحشد المنتظر الذي تكاثر، هذا الحشد الهادىء بلا روح، أتمنّى ان أراه كقطيع أنعام او بهائم منكسة رؤوسها، تجرّ أرجلها في طريقها الى الزريبة.

آه من هذا العذاب المتواصل، كل يوم، وبمعدل مرتين دائما، يعلو ضغط دمي، الى درجة الغليان، أحس فيه باندفاع شديد، مبهم، لارتكاب جريمة. قتل المنجي مثلا. هذا الحقير الشهواني، الذي يرأس قسم المعاونين، يا له من كلب. أنا الوحيد الذي يأتمر عليّ، منذ اسبوع، فرض عليّ تلميع حذائي يوميا، لا أدري ما هي الحكمة من ذلك. قال إنه يحبّ نظافة معاونيه، آه الساقط، هل هو نظيف! والله إنه كومة وساخة متعفّنة، نبت فوقها ذلك النبات ذو الدوائر الرماية المشربة بالبيوضة، نبات الفقاع. أم يحسبني بنتا، ينبغي أن أتأنق

لتحريك ذائقته الجمالية. لو يتقمّصني شيطان أعور، لاحطمنّ جبهته الجوفاء اللاّمعة، وسيارته.. لا. أحطم سيارته أولا، ثم انتظر إلى أن يذلّ مثل الجميع، يوميا، بالانتظار والزحام في محطّات الحافلة، بعد ذلك آتي على رأسه القذر.

ارتفاع الحركة واللغط، أعادني إلى مكاني، متكئا بكتفي اليمنى على صاري الشركة القومية للنقل، هو الحشد يتجمع ويلتحم، يضيق به الرصيف، فيتناثر بعضه على جنب الطريق، يطوقني، ويدفع بي في سيلانه، أمام باب الحافلة الخلفي، يسمع للحافلة صرير وتكتكة حادة، يتخيّل إليّ أنها ستنفلق، فهي منتفخة كبطيخة فاسدة، وجدرانها تتمطط من الضغط البشري، وتتشكل نتوءاتها في هيئة عديد النسوة المصطفات، تبدو عليهن سمات الحمل.

توصلت بعد لأي للصعود، بعد ان أدميت، لكزا ورفسا، ورددت الفعل، لكن أحد الاجلاف، ترك على وجنتي اثرا موجعا، حين استند عليّ، بمرفقه المدبب، اغاظني وأفلت مني.. هذا الاختناق شديد، لدرجة يصعب معها التنفس، وضايقتني جدّا هذه العجيزة المفلطحة الكبيرة، لكهلة سمراء، انها تحاصرني بردفيها العظيمين عند منتهاهما، تمنعني حتى من التململ.

وتحركت الحافلة تدب الهوينا كالقملة، تحركت سفينة العذاب اليومية، وأنا في أتونها، ليت ذلك الكلب المنجي موجود معي، وتلفح هذه الانفاس الحارة القوية المندفعة من مناخر هذا الصنف المتدني من المخلوقات، رقبته الحمراء المتوردة من مصّه الخمور الفاخرة، ليته معي ليداعب أنفه ويغتصب شمّه، هذا الهواء المعبأ برائحة الاحذية والصنان، الذي يماثل رائحة جثّة متفسخة من زمان، ألا يحب النظافة، بالفعل، فليأت الى هنا، ان هذه الرائحة النتنة، ذات المردود المدوّخ، ستقعده عن رئاسته لِي اياما، ستريه النظافة، لكنّي اعرف انه نذل ولئيم، لو ركب الحافلة، لابد ان يجد له في هذا الاكتظاظ

المرعب، فتحة تسليه، اكيد انه سينصرف الى مؤخرات الفتيات، او النساء، يداعبها... العنّين!

صوت قاطع التذاكر الغليظ الأجش، يرتفع فوق اللغط، وقهقهة فتيات المعامل السافرة، وهن ملتصقات، يمسحن ثلث الحافلة، وقد تسلّل بينهن رهط من الركاب الذكور، يحادثونهن في اختلاج وتحفز ويساهمون مع الكل في مهرجان الصخب..

« ياأخي تقدم.. اقتطع تذكرتك.. ليس معي فكّة.. انا لا يهمني.. سوف يصعد المفتش.. من يضبط بلا تذكرة، فقد ظلم نفسه..»، رغم العجيزة المفلطحة، رغم الروائح الكريهة، رغم الزحمة التي تعترضني، فقد ابتسمت، اعجبتني، اثارتني كلمات قاطع التذاكر - فقد ظلم نفسه - انا دائما مفعول به، مظلوم، أليست فكرة رائعة، ان يحاول الانسان، ان يكون ايجابيا، ولو مرة واحدة في حياته، فلأجرّب الفعل، أحاول ان أكون فاعلا، ولو مرّة واحدة في حياتي، يبدو لي ان المسألة، ليست في غاية الصعوبة، بما اني سأمارس الفعل على نفسي، أريد ان أظلم نفسي، ألم يقلها قاطع التذاكر، أنا سأظلم هذه النفس، التي يظلمها قاطع التذاكر، والحافلة، والمنجي، والجميع، اذن لأرى هل أنجح انا في ذلك، ولاول مرة اتخذ قرارا بمفردي، لم يتدخل فيه المنجي، ولا أحد، عزمت، وباصرار، على أن لا أقتطع تذكرتي. لكن إذا جاء المفتش، سيجبرني على دفع الخطية، سيفضحني أمام هذه العيون، الهادئة بلا روح، التي سينعشها مشهدي، وتشع بالتشفي.. لا يهم لن اقتطع هذه التذكرة، لن أقتطعها، هم يعاملونني كحمار، وأنا سأتصرف كحمار حرّان، وإن بالغ في مضايقتي المفتش، فإني سأخلع فكّه، بلطمة انسان،، يعضّ على آخر مقومات انسانيته.

فترات عصيبة هذه التجربة، قلبي ينبض بشدة، أكاد أسمع وجيبَه ، يدي ينزّ منها العرق، داخل جيب سروالي، وهي مقفلة

بعصبية على قطعة النقود، التي الان، في العادة، تكون في حافظة قاطع التذاكر، أَهُمُّ باعطائها له، لكن اعدل عن ذلك، ان عنف انتهاكهم، يلزمني على التشبث بقراري، وأزيد من الضغط بيدي على قطعة النقود، والحافلة تدب الهوينا، كالقملة في مفرق الرأس، وأنا أتطلع علّني أبصر المفتش حين يصعد، استرق النظر الى قاطع التذاكر، والى بلور الباب، احسب المحطات. . والحافلة تدب الهوينا، أظنّها لا تسير، كأنها وقفت، ووقفت كل الاشياء، حتى الزمن، في انتظار ضبطي متلبسا بتهمة سرقة أموال الدولة، مع سابقية الاضمار والترصد، والعيون فاترة بلا روح، ليس فيها شيء من الحزن والسرور.

أول الصباح الشتائي

دائما لم يكن في مقدور عبّاس الاستيقاظ من النوم صباحا، الا متأخرا وبمشقة. كما ان هذا الفصل الشتائي البارد بطبيعته، يعسّر نهوضه ويضفي على الفراش سخونة لذيذة مفعمة بأنفاس النوم، ورائحة وحنان الاغطية الصوفية التي تجعل الجسم يتغنّج متمططا في غفوته وكسله وارتخائه.

ساعة النوم تلك : من السابعة الى الثامنة صباحا، لها عند عبّاس طعم مختلف وآسر. إنها فترة يكون فيها الاستمتاع بالنوم والفراش ذا خدر خفيف. الذهن نصفه واع يقظ مختلط بنصفه الهامد الغائب. يعاني بمتعة وتأثم هذا الثمل الصباحي العزيز، حيث منطق التأجيل المتهاون سيّد مستبدّ... «إنها السابعة يا منجي. ! مازال متسع للثامنة.. سأنهض عما قليل، اتركني لابقى خمس دقائق.. أرجوك !.. وخمس دقائق أخرى.. وها أني في سبيلي للنهوض.. اذهب أنت، لا شأن لك بي.. سألتحق في الوقت بالضبط... تأكد.. !».

ويغادر المنجي هذا البيت الذي يتقاسمه بالسكنى مع عبّاس كأعزبين، الى المدرسة حيث يتزامل معه في تعليم الناشئة، تبدو عليه اللامبالاة رغم ما به من امتعاض.

ان عشرته لعبّاس جعلته يدرك الصراع الرخو الوضيع الذي يخوضه يوميا كي يقتلع نفسه من الفراش، ورسّخت عنده قناعة بان صديقه غير منضبط وسيجني عليه النوم المستهتر حتما. فقد انحطت سمعته في العمل، ولم تردعه التنبيهات والانذارات والتوبيخات العديدة التي وجّهها له مدير المدرسة، وجها لوجه. كما خابت كل مساعيه واساليبه المتحايلة والراجية في تغيير عادته، باقناعه بالقيام مثل جميع الخلق. ان عبّاسا مصاب بالتلكؤ وقت النهوض صباحا ولا يفلح فيه العلاج.

* * *

«فما اطال النوم عمرا، ولا قصّر في الاعمار طول السهر»...

واستفاق المنجي مبهوتا، هامّا، على نغم كلمات ام كلثوم التي كان يدندنها عبّاس وهو في كامل لباسه، متوجها الى المرآة، والبيت مضاء، ورغوة صابون الحلاقة مركوّة على وجنتيه، وهو يخرطها بالموسى بمهارة وسرعة، هازّا مؤخرته يتتابع على ايقاع اللحن.. كانت حالته توحي بالنشاط والانتشاء. وهذا امر في منتهى الغرابة بحيث جعل المنجي

يفرك عينيه بعصبية وتعجّل، ويرفع جذعه عن المخدة حتى انحسر الغطاء الى صدره، ويتفحص ساعته اليدوية، فيدنيها من عينيه، فيدلك عينيه ثانية بيده اليمنى ويده اليسرى مرفوعة قرب وجهه، فيعيد التثبت في الساعة مدققا، فيضغطها على اذنه، فيسمع دقاتها، فيصرخ مستفهما ومتشككا في سلامة التوقيت:

- كم الساعة الان؟

- كما في ساعتك بالضبط...

- انها السادسة والربع.. انها السادسة و...

- وما الغرابة؟ نعم انها السادسة والربع..!

- ماذا حدث في الكون لكي تنهض باكرا، في هذا الوقت؟

- «فما اطال النوم عمرا..» يردد العبارة بصوت عال يخالطه الزهو والتدله.

- ما معنى هذا؟؟؟

«سأخبرك عن معناه عند الاوان».. قال ذلك وهو يرش العطر على راحتيه مربتا بهما خديه الحليقين، وخطا واثبا الى الخارج، تاركا المنجي يلملم نفسه في تعجب وحيرة.

كان صباح المدينة مغسولا وصحوا، وبه رعشات بسيطة من القرس، بعدما امطرت طوال الليل، وهذه الرعشات او النسمات تداعب حانية بشرات الوجوه فتحمر لها الخدود والانوف الدافئة، مطيعة حيية. ان البخار المنثور منها يذكر بالجبال والروابي حين تستقبل الصباح متنفسة بعمق وكثافة. أوّل الصباح ينعش الذاكرة بصباحات بعيدة، غاية في البعد، ويجعلها صافية، تمام الصفاء، وعلى اهبة ان تخزّن صباحا اخر، باناسه المسرعين في همّة ونشاط والذين لا يثيرون كثير صخب وتصنع مثل أناس وسط النهار وأواخر الليل، العاطلين السيئين اللئام، مع صغار المحتالين والمتقاعسين من موظفي الحكومة الذين يسرقون الوقت.. اناس أول الصباح يحرضون الحياة على أن تكون حياة، باندفاعهم الطيب وسعيهم المتشبث باصرار على ان تكون

اشياء الحياة معطاء اكثر ومفرحة ايضا، واكثر سهولة في التحمل، انهم يهبون أرواحهم بسخاء في سبيل استمرار الحياة متدفقة، رغم ترنحها وتهتكها بين الجشعين ذوي الأرواح الشريرة الملتاثة المتثائبة، الذين ينهشونها باجرام لا يعاقب عليه القانون. اناس أول الصباح، وحدهم، تبهظهم الحياة، وتغمطهم حقهم رغم انهم يبذلون ولا يحزنون.

وكانت هدأة الصباح لطيفة ومغرية، تعتمل فيها الحياة بشكل مرئي يمتلك الحواس جميعها، واصبح عبّاس بفعل ذلك يسير بتؤدة وتيه، مخطوفا بهذا المناخ المضيء الذي يولد امام عينيه. الصباح الفضي المنير يتفتق من غبشه الضبابي، من فجره الشتائي المتأخر، يطل على المدينة بتمهل ورفق ومغازلة، ليجلو عنها النوم والظلام، ليدفع عنها ضجر الليل الطويل، الممطر، ليجددها. وتمتد الطرقات امام ناظريه مرتاحة ورحبة، وهي في شبه خلائها تتيح لعباس ان يمشي فيها بحرية، في اليمين او الوسط او اليسار. بحرية وعبث صبياني. بمقدوره في هذا الاتساع الطلق القائم في هدوء حيوي ناشط، ان تسترق اذنه الغمغمات التي تسري وراء الجدران، هامسة سرية اليفة مفاجئة محرمة. بمقدوره أن يميّز عن بعد بين همهمات الرجال المبكرين المارين عن بعد، وبين سعالهم وادعيتهم المبتهلة، التي بدت له الان حارة وصادقة كما لم تكن من قبل بالمرّة، بل ان تحياتهم الودودة التي يسمع صداها، ظهرت له كأنها بدون غش ولا تبطن منفعة.. وأيضا النساء القليلات اللائي يسرن واثقات ببسالة، مسرعات بسيطات في ملابس العمل، غير متبرجات ولا متسخات بالماكياج الثقيل الذي يجعل من العسير فرز العاهرات عن المحصنات، ظهرن له شريفات مخلصات كما لم يظهرن سابقا بالمرة.. فلماذا كل هذه الطيبة وهذا الصدق المغالبين المجحفين؟.. أهذا بفعل الصباح الذي من طبعه، لا يغش ولا يزيف؟ ولم يكترث عبّاس بالبحث عن اجابة! وهو الذي انتبه للتكسيات التي طالما أغاضته ولعبت على اعصابه بظلم ودون رحمة، كي

لا يظفر بها الا بعد ان تفوّت عليه وقتا ثمينا، وقتا يعوضه المدير سلخا من كرامته وشخصيته باللوم والتوبيخ، هي الان تتجول سائبة، في متناول اي اشارة، اي ايماءة بسيطة منه.. يالفتنة الصباح.! يالنفسه البارد الرحيم المقوي.! يالغبطته وانشراحه! انه يستدعي الكائنات تباعا، بترحيب ووعود كثيرة لا مسؤولة، حتى يغدو لا يطاق.! والفتيات المليحات، مليحات كلهن، ملاحة في القدود او في الوجوه أو في الارواح، مليحات الى حدّ يصيب الذكور بالعنّة، مليحات تفوح منهن رائحة الجسد المغسول بالماء العذب، الصالح للشرب، رائحة نفاذة كالمني، كالجفال المطهّر، كالعرق الشهري، كالماء الصالح للشرب... وعبّاس كالمسحور يسير، وسط هذه الحياة الطالعة بحجمها الفاتن.. هذه الغواية وهذا العشق لم يعرفهما عباس من قبل مطلقا، يكتشف الموجودات كأنها تتكون فيه، بل انه يتماهى مع الأشياء، ويستبطنها كلية، كل شيء يتبدى له خلاف ما الفه، بل انه يغوص ويتعمق ويستكنه الجوهر، يحس بالعمران يتخلله، يحسّ حلوله وسريانه في الحياة التي تنبض من كل ذرة...

ممتلئا ومتجليا، يسير مشدوها وغائبا ومسرورا، يسير روحا محضا، مع روح اول الصباح الشقيقة، ينساب اماما، أماما في سكر وانسياب ونشوة مع الكائنات الاخرى، منجذبا الى انبساط الصباح ورونقه، في ايام هذه المدينة التي تستحوذ على الرونق وتحوله الى قبح.. يسير فوق الفواصل وبينها وخلالها، الى ان صدم! صدمه الصوت المرتفع المنبعث من محل مرطبات،، صوت أم كلثوم الميتة الذي يبرّح في صياح: «فما اطال النوم عمرا، ولا قصر في الاعمار طول السهر...»

الصوت لا يتناسب مع حركة الصباح الاخذة في التفاقم، بل المتفاقمة دون ان يدري، وتناسب مع الخبطة التي احدثها عبّاس حين ضرب بهلع كفّه على جبهته، ونظر في ساعته محدقا:

انها الثامنة الا ربعا..! لقد امضى ساعة ونصفا تائها في انطلاق الصباح المتعجل، تائها في جماله الحيّ الخاطف الخلّاب.. فكيف له أن

نسي موعد السابعة امام محطة قطار الأحواز الجنوبية مع فتاة امضى شهرا بطوله يترصدها ويراودها بصبر وثبات وعسر متلهف، حتى تهاوت في الأخير وحددت له موعد السابعة صباحا، ليشربا قهوة مع بعضيهما ويتعارفا. . ولولاها لما هيء له ان ينهض باكرا. . . لكن لنرى غدا، فقد صمم على ملاقاتها. . الم تعلمه انها تستقل القطار في مثل تلك الساعة يوميا الى العمل.

«عبّــاس»
في حالة سيئـة

اسمعي جيّدا إن أخلاقي فاسدة وروحي في منخري، وأتفه سبب يفيضها وتدخل أموري في بعضها، لذا امسكي عني لسانك، فلست مستعدّا ولو للحظة أن أسمع شيئا أو أتحدّث في شيء. لا، ليست لي رغبة... ولا حتى في قهوة ولا شاي.. هل يريحك هذا؟ ابعدي عني، امشي. هذا أفضل ما تساعدينني به.. يا امرأة ما أغلظ قشرة دماغك، إنك بهيمة حقّا. فماذا أفعل لك لكي تفهمي بالرمش.. طيّب. إني عارف أن ليس لك دخل فيها أنا فيه. ها أنك بريئة ألا

يكفيك ! فامشي . . امشي . . اغربي عني . . ارحميني الآن من وجهك، إنه يزيد في تعكير مزاجي واسوداد نفسي. أووف. . ما هذا ؟! مازلت لم تتزحزحي . . أوتنتظرين ما يسوؤك ؟؟

* * *

اصطفق باب الغرفة بعنف، ولم يضع صداه في فضائها تماما، حتى تناهى إلى أذنهي عبّاس ـ الذي قدح في تلك الآنة عود ثقاب والصقه بسيكارته المرتجفة بين شفتيه ـ نشيج زوجته المحتد كالشهيق ثم المكتوم كصوت جرو صغير ينوس. فمكتوما فمحتدًا. لم يكترث، وارتخى في جلسته على الكنبة بوسط الغرفة، وهو مقبل على السيكارة في استغراق تام.

* * *

لست مذنبا في حقها على كل حال، قلت لها أن أخلاقي فاسدة، فلم تكن لبيبة. إني أفهم أنها بتلكئها في تركي، إنما كانت تنوي تفريج حالتي، لكنّ ضيقي بنفسي والدنيا، حال دون مسعاها. ها أن بكاءها يملأ كياني ويهزّ نفسي. إني أشفق وأرثي لها. المسكينة حظها منحوس معي. إن أحلى فترة في عمرها ستتبخر من جرّاء الصعوبات والمشاكل، التي بدأت تطلّ بهامتها الضخمة الناتئة ووجهها المكفهرّ في حياتي. إن بكاءها يوجعني. أأكون آلمتها لهذا الحدّ ؟ إني أفطن الآن إلى مدى حمقي حين نهرتها بذلك الشكل القاسي. كان الأجدى أن أشركها بما أنا فيه. لكن ما نفع ذلك ؟ ربّما الاسلم أن تكون بمنآى عن معاناتي الخاصة. ترى لو قلت لها حالتي بماذا تستطيع ان تهوّن عليّ ؟ إنها المسكينة أعزل مني وليس بيدها حيلة . إني أعرف أن أقصى ما يمكن أن تفعله، هو أن تقترب مني وتتلطف في عبارتها، وتخلّل أصابع يدها اليمنى في شعر رأسي، وتلفّ ذراعها اليسرى على عنقي في انزلاق على منكبي، وتمسح براحتها جبهتي، تمسيدا وضغطا لينا بطيئا، ثم تسكن رأسي على صدرها. لقد كنت أتعمد الانفعال والغضب في السابق، حتى تفعل

معي ذلك. كنت أغشها بسلوكي وقد اعتادت التواطؤ، مغتبطة في طيبة واندفاع تحاول ستره. وكنت أجد لذّة مبهمة تنحلّ بطراوة وخدر في نهاية أعضائي. إن صدرها دافيء وحنون كأمّي، وهي حين تنخرط في تهدئتها لي، تلفظ كلامها بملاصقة أذني ورقبتي، تلك الكلمات التي تصطدم في ليونة بالجلد، فيتشوّك شعره الاهيف بفعل وهجها والنفس الحار المدفوعة به. هذا يجعلني أسخن كثيرا.. ثم نلهث سويا حتى يندى جسدانا برطوبة باهرة فائحة. وفي الختام تنفرج أساريرنا وتشرق بابتسامة عريضة راضية وهنيئة.

... تُف على ذهني المنحرف الأعوج، أو في ماذا؟ وإلا في ماذا؟ أهذا وقت التفكير في مثل هذه الأشياء؟ بعد أسبوع أجد نفسي على الرصيف، وبعد شهر على الأكثر لا أجد من أين أصرف. وهذا العقل الفاسد لا يسعفني إلا بتخيّلات جنسية تسهم في بلبلة خاطري. أيها العقل الفاجر سوف تهدّ البطالة والجوع عضلاتك الشبقية التي تستعرضها، في أوانها وفي غير أوانها. آه. لم أجدك زعيما الا في هـذا، غارقـا ومتخفيـا فيما يشبهك بالحيوان.. بعد أسبوع لن تجد زملاء تفذلك معهم وتسخر وتزدري أمامهم من مسؤولي الشركة التي تعمل بها. «كل كيّس في الناس يحمد رأيه إلا وتجده في الحبّ أحمق» تطنب في تفسير معنى كيّس لهم، ومعنى أحمق. المدير وأشباهه كيسون، لأن لهم مالا ولهم علاقات رفيعة وشركات ويعرفون كيف يتكلمون بطلاقة. وحمقى في الحب، لان ليس لهم همّ في الدنيا إلا الانصراف للتفكير في تنمية ثرواتهم، وبذلك ينشط ويعمل عقلهم على حساب قضبانهم. يا لسخف هذا المنطق، من يثبت صحّة هذا التخريف؟؟ إن غيرتك وحسدك هما اللذان يخوّلان لك هذا التفسير الغبيّ. نعم أنا حقود وحسود، وأعرف أن تعريضي بأولئك يتم للتشفي، وكذلك لأبعث في نفسي احساسا بأني أمتاز عليهم بشيء ما. إن زملائي كانوا يغتبطون لهمزاتي ولمزاتي، وتصرعهم القهقهة، فيتمايلون ويخبطون بأيديهم على أفخاذهم ـ لا فضّ فوك يا عبّاس

ـ هذه العبارة التي يرمونها إليّ متقطعة بضحكات عالية، تطنّ الآن في رأسي، واكتشف مدى تجوّفها وفراغها. كنّا نبحث في أنفسنا عمّا يظهرنا في أعين بعضنا رجالا مكتملي الرجولة. بل نبحث عما يجعلنا نهزم تفوق أعرافنا بتفوق لا يطالونه، وعمّا يبعث فينا النخوة لكي نحقّر من شأنهم في أعيننا، وسرعان ما نعثر على ذلك في أشيائنا التحتية. يا للسخف والمرطقة. هراء وهذيان مرضى. نساؤهم جميلات متأنّقات وأطفالهم أصحّاء معافون. من أنجب تلكم الأطفال ؟؟ هل كنا نحن ننوبهم في بذر الذرية في أرحام نسائهم ؟! يا للحقارة. حتى تهمنا التي نرمي بها الآخرين، كم تتبدى ضحلة وشديدة الفقر.

يا إلاهي ما هذا ؟.

عليّ أن أتدبر الأمر. كيفما كانت الحالة. إنهم أعلنوا بطريقة لا لبس فيها، أن الشركة أفلست، وهم مضطرّون لتسريحنا، وهذا طور تصفية حساباتها وحلّ ارتباطها بالمؤسسات والشركات الأخرى. ثم لا كانت شركة ولا كنّا أعوانا لها. إن عقلي يتشظى، وهذه المرأة لم تكف بعد عن البكاء، يبدو أن بكاءها سيمتدّ ويعلو مع الأيام العصيبة القادمة. إلى متى سأداري الأمر عنها. إن دماغي مشلول ولا يسعفني بشيء، فماذا أفعل يا ربي.. ؟

أكتفي الليلة بالظلام

«خمسة عشر ديناراً» قالت. هذا ما تطلبه كمقابل...

وقلت لها إنك تنحين إلى الفحش في الطلب يا فاحشة السلوك..

نعم إنّي أعيّرك، وسأسبك سبّاً مقذعاً لم تسمعيه من قبل.

وقلت لها متراجعا مهادنا حين كشّرت عن أنيابها:

«كانت علاقتنا ستتواصل في صورة اتفاق ضمني يكون مدعاة لرضى الطرفين، لو أجّلت هذا الأمر، كان الأجدى لو فعلت».

وخفت من شيئين : أن يعلو صوتها في الشارع فيتجمهر الناس وانفضح، أو تتركني لوحدي مع أعصابي التي استثيرت بسببها، ويشقّ عليّ التصالح معها بعد أن استفاقت من هجوعها وستسبب لي ألما.

وكانت لوعتي أقل من كبيرة، حين أدبرت وخلفتني أحاول التفاهم مع فراقها وأعصابي...

لم أحاول اللحاق بها ومفاوضتها مستعطفا، كنت نفضت يدي منها. وكنت أعلّل نفسي بأن خمسة عشر دينارا مبلغ كثير، والله كثير، ليس فقط لأني لا أملكه الآن، وإنما لأن طلبها الذي يمثل شططا كبيرا، أفسدها في عيني، أفسدها الطلب في ذاته، ففي مثل هذه الأحوال، لا بدّ من الستر والتمويه والتحايل في ادعاء القليل من الشرف والحصانة. أما أن يداخلني احساس من الأول، إنها بياعة وإنني مشتر، فإن هذا يفسد كل شيء ويسقطه في الرذالة، مع شعور منكر بأنني ألج، حين أولج، مستنقعا مباحا للكل، آسنا وموحلا، ينغل بالجراثيم التي تصيب بالسفلس..

كان طلبها في معناه الأخير صدّا حاسما وساقطا معا. لقد سببت لي في النهاية توترا واحباطا، برغم أنها كانت متجاوبة معي في الأول، وبالأحرى، فقد كانت هي صاحبة الدعوة. ما كنت لأتجرأ وأخاطبها، لولا تلك الاشارات المرسلة الدالة التي كانت توزّعها في عرض باب البحر. أنا كنت محتاجا ومهيأ لألتقط الاشارات وأفهم مغزاها بسهولة، ربما فهمها، كذلك، غيري من المشّائين المسائيين، وهذا مؤكد، فمؤخرتها المعقولة الحجم المحشورة في بنطال جينز يضفي عليها صلابة وتكوينا خزفيا، لتماثل الجرة الصغيرة، ما كانت صامتة في تمايلها الموقع، كان لها نطقها الذي يهيّج العزاب، ويرسم على وجوه المتزوجين المحافظين استنكارا مشوبا بشهوة المحارم.

كنت مغتبا، وأنا أرى الفتيات والنساء يملأن الشارع في المساء الذي رغم انشراحه بدا حزينا ومزعجا. كانت بي رغبة متأججة لأحيط

بذراعي خصر احداهن. ألتصق وإياها، ونهمس لبعضينا، وأدعوها لقهوة فتقبل متظاهرة بالتردد والخجل من الدخول إلى المقاهي العمومية. كانت أي أنثى ستعجبني وسأبدي لها اعجابي على الفور. كانت شروط الجمال والقبول قد انعدمت عندي، وأصبحت الأنوثة في أي شكل ظهرت، ومهما كان متدهورا، هي مطلق الجمال.. كنت بحاجة لانزوي في ركن منفرد مع امرأة وأجاريها في حديثها العادي الذي تنقصه الافادة والتماسك، وأتملّى وجهها وهي تجيب على الحاحي المتخابث بقضاء الليلة معي لوحدينا. كنت سأتوفق لأن أجعلها تقتنع.. أي واحدة لها ذرة من العقل والشرف، ولها اخلاص لجسدها، ولها فسحة من الحرية في السلوك، لا بدّ أن تقتنع وتوافق.. لكن بنت الحرام تلك، التي طلبت الخمسة عشر دينارا، قد أفسدها رجال النفط الخليجيون السيّاح، وعمالنا المهاجرون، محدثو النعمة جميعهم، يسعون لتغليف غلظة أذهانهم المجوفة، بالتظاهر بالثراء والتحضر والمقدرة على الانفاق. وجعلوا منها قحبة ترفّع في الثمن في سوق يتضخم فيها الطلب..

* * *

ظِلّ المساء بدأ يثقل، ويتحول إلى ظلام يوحش القلب، برغم لمبات الاضاءة العمومية المشعلة في المدينة. والظلام اللعين يطرد الناس باكرا إلى مآويهم في مدينة تونس التي تتحاشى السهر كأنها في حالة طوارىء دائمة، مفروضة بصرامة، أو كأنها قرية نائية معزولة عن صخب الانسان عندما يندفع في مزاولة حياته. فالليل حين يدخل عليها تخرج منها الحياة كلها، ولا يبقى إلا الحرّاس ودوريات الأمن وبعض المتعجلين في أوبتهم إلى البيوت، وكأنهم باسراعهم يعبّرون عن اعتذارهم لليل متجهم قمطرير عن تأخير غير مقصود.

كانت الحركة لم تنعدم بعد، وكان العدم يغوص في كياني مع انعدام النساء في الشارع. أولئك النسوة اللاتي كن كالنمل في الشارع غبن

رويدا رويدا، يحملن تلك الاعضاء الأنثوية الأسيرة في سماكة الخوف والقهر والرغبات المقموعة والمفاهيم البائدة المتينة للشرف والخيانة والخطيئة، غبن دون أن يتركن لي فرصة لألقي ولو نظرة متمعّنة على رسومات أجسادهن المبتورة من جسدي، رسوماتي أنا، يحتكرنها ويخفينها العاهرات.

خائبا، زائغ العينين، والحسرة حاطة فيّ، أقول لنفسي :

ـ هيّــا لنرجع . !

وصاحبتي منهوكة محطّمة، وفي حالة جيشان، وخطونا بضع خطوات، وتمايلت وتلكأت، وما لبثت أن تماسكت وداخلها شيء من الحيوية، وأنا أحضنها بحنان وأترفق في الضغط على يدها مشجعا. . هيّا لا تخافي ستبيتين الليلة معي، سنجعل الليلة مشهودة والفراش عامرا ودافئا، سأكون جيّدا وسخيا وسعيدا معك، فكوني كذلك، فانا أحبّك. منذ طفولتي وأنا أحبّك، أحبّك وادرأ عنك الأذى، ساجعلك الليلة منتشية وفي منتهى الحبور. . وكانت ترضى لهذا الكلام، وتربّت على خدّي وتقول : أصدّقك أيها الشقي. وكنت أحدّثها بقولي، إني لا أكذب حين قلت لك منذ طفولتي وأنا أحبك، وكنت دوما أعتبر سلوكك سليما لا تشوبه شائبة. عندما كنت صغيرا، كانت أمي تبتهل وتدعو لي بأن يبعد الله عني أولاد الحرام وبنات الحرام، كنت أتطير للغاية من هذا الدعاء، وأطلق بتعجل وحماس واندفاع خارق، دعاء آخر لكي يسبق دعاء أمي إلى الله، أقول له فيه : ابعد عني أولاد الحرام فقط. أما بنات الحرام فلا شأن لك بهن، وإذا أردت يا ربّي أن تسدي لي معروفا فقربهن إليّ. . كنت أحب بنات الحرام منذ الصغر، كنت أحبّك منذ الصغر، وأقول في صغري، إذا أبعد الله عني بنات الحرام، فمع من سأعيش، وكيف أجد الجنس، وكيف أعيش بلا حب ولا جنس ؟ وكيف تكون الحياة وتلتذ ؟؟. وقلت لها، كانت عندنا في القرية واحدة يطلقون عليها بنت حرام، وتتهامس النسوة بحديث

مشبوب حولها، على أنها تخالط الرجال في السرّ. وكنت أشتهيها وأتخيّلها بطلة.

وقلت لها : عندما أصبحت أفكّ الحروف وأقرأ الجريدة، وأطالع ما ينشر في زوايا المحاكم، كنت اغتاظ بشدة عندما أقرأ أن دورية أمنية قبضت على نساء في حالة مراودة في الطريق العام. كنت أقول في سرّي أن هذا الحاكم سيقضي بسلوكه المتهور على كل النساء السخيات المعطاءات... كيف يفعل هذا ليحرمنا من النساء الممتعات اللاتي يسهّلنَ بفجورهن الحياة.. وقلت لها كنت دائما لا أعتبركن نجاسة أو خبيثات أو غير عفيفات..

وقلت لها انكن تمثلن مستقبل كل النساء، فأنتن تعاشرن من يروق لكنّ من الرجال، وستصل النساء الأخريات اللاتي أدنى منكن، رغم المشقة العسيرة والآلام الموجعة التي أمامهن، للتحرر من عقدهن والتصالح مع أجسادهن ومعنا ومع الواقع.

وقالت بصوت معترف بالجميل، خارج من حرارة الأعماق، وخطوتها تساير خطوتي، وهي ملتصقة بي في عشق : «لك تفكير رجل منذ خلقت»، ورغم أن صوتها كان مسموعا، فإنه لم يثر انتباه أحد في الشارع الآخذ في الانسحاب مع شدة حضور الليل. هي لم تكن تبالي، ولا تلقي أدنى اهتمام لا لليل ولا للآخرين. كانت مكتفية بي ومتجاهلة للعالم، حتى أنها تركت رقبتها تطول، وصدرها ينهد، وخصرها يضمر، وعجيزتها تأخذ تكوينا محببا بكفلين صقيلين مخروطين، وتَوّجت في الأخير رأسها بالشعر المتهدل الطويل، هذا ما تركته يتم في صورة علنية، في صورة بهاء وغواية في عرض الشارع..

وقلت لها :

ـ لِمَ تفعلين هذا الآن ؟!

قالت :

ـ لن أصل معك البيت إلا وأنا في كامل أنوثتي وكامل زينتي..

ما كنت أحبّذ تعجّلها المبالغ، في الاعلان عن نفسها بهذا الشكل، كانت ستحرجني ونحن في الشارع، لكني التمست لها العذر في أن الانسان خلق عجولا، ولا بدّ أن يكون عجولا أكثر في هذا العصر، أمام تعجّل الحياة القصيرة التي يتربص فيها الموت.. وفكرة الموت ذكّرتني بما كتبه الدكتور حامد ربيع في مجلة عربية مهجرية من أن هناك برقية أوردتها وكالة رويتر في 2 أفريل/ نسيان من هذا العام وتدور حول وجود تعاون مشترك بين اسرائيل وجنوب افريقيا بشأن اختراع سلاح بيولوجي يتجه إلى قتل فقط غير البيض من سود وملونين، وأن هناك مراكز تعمل في هذا المعنى في اسرائيل وجنوب افريقيا تابعة للجيش، وقد توصلت إلى اختراع جراثيم قاتلة ذات مفعول انتقائي، وقد اختبرت الفيروسات التي تنتج هناك بالفعل على مسجونين سياسيين منهم أفارقة وعرب بموجب برنامج مشترك بين اسرائيل وجنوب افريقيا.. وقلت لها ما تذكرت، فلم تكترث كثيرا وقالت:

ـ هل هذا يخيفك ؟!

ـ قلت بالطبع ! فنحن ملوّنون، ألسنا عربا ! بشرتنا سمراء، أننا أول المستهدفين، أول من يموت.. نعم إنه يخيفني كثيرا.

وقلت لها:

ـ لم نعش بعد، فكيف يحين أوان الموت هكذا ؟!

وقالت: «هوّن عليك..» وسكتت. وأصبحت تلقي بيدها على كتفي محتضنة، وأنا أحس نفسها وهو يلاطف عنقي. كانت فكرة الموت المتوحشة تلك، قد أبعدتني عنها قليلا.. لكن ها هي تبادر وتقترب مني، وتحاول أن تستعيد اقبالي الكلّي عليها، وهذا من أسهل الأمور المتاحة لها. كنت طوعها إلى أن وصلنا البيت وضغطت على زر الكهرباء لأشعل الضوء، لكني بعد جهد وتثبت في اللمبة والاسلاك، اكتشفت أن شركة الكهرباء الوطنية قطعت الضوء عن البيت، فأنا لم أسدد ثمن الفاتورة المرسلة منذ مدة، لم أكن أملك المبلغ حينها.. فتشت عن شمعة في الدّار، فلم أجد.. إذذاك قالت لي لن أنام معك

في الظلام. ! لك أن تؤجّل ذلك الرضى الخاوي الذي يصيبك بعد النكاح إلى النهار، ولك أن تكتفي الليلة بالظلام.

العظـــام
تصفّر لبعضها

«من الناس من لا تصحّ محبته إلا بعد طول المخافتة وكثير المشاهدة وتمادي الأنس. وهذا الذي يوشك أن يدوم ويثبت ولا يحيك فيه مرّ الليالي، فما دخل عسيرا لم يخرج يسيرا، وهذا مذهبي».

(ابن حـزم الأندلسي)

ـ سأتزوجها يا أمّي..

ـ إنها عاهرة !! كيف تفعل ذلك يا بني. ؟!

ـ ....

ـ اتّق الله يا بنيّ.. إنك تصيبنا بالعار، إنك تفضحنا ! هي عاهرة باقرارك أنت !!

هي لم تكن عاهرة بالمعنى المعروف. إنها امرأة شبقة صاحبة شهوة، اضافة إلى كونها جامحة الرغبة، ضجرة، يعتريها الملل والسأم سريعا، ويدفعها للتملص من الارتباط الطويل، أو السكون الدائم لقزين.. كانت في السادسة والعشرين، لها تجربة واسعة مع الرجال، لا تتستّر عليها ولا تتباهى بها، إنها تعتبرها أمرا طبيعيا حصل لحاجة الجسد لا غير.

في عمرها ذاك، التقاها عبّاس، وهي تشتغل مساعدة حكيم متخصص في مرض الأعصاب، عرف عنه تساهله في منح شهادات الاجازات المرضية بتسغيرة خمسة دنانير. وقد كانت بصدد الكتابة في دفتر ضخم، بدفتيه الكبيرتين يغطي مساحة المكتب الخشبي الصغير، ولا يكاد يترك بقعة للتليفون ولأختام الحكيم المهنية المتدلاة من الحاملة. وإذ ألقى عبّاس عليها السلام، بادلته التحية دون أن ترفع له وجهها، وأردفت بلفظ يخلو من الاهتمام:

ـ تفضـــل

قال: «أرغب في مقابلة الدكتور». وخطى حتى أصبح بَحْذَاهَا، يسقط عليها نظره وهي متكومة على المكتب تعمل بالقلم من اليسار إلى اليمين في كتابة فرنسية... وما لبثت أن توقفت عن ذلك متنبهة للحضور المصاحب لهذا الشخص الذي اقترب منها، باعثا فيها احساسا بالمداهمة وبأن الغرفة قد نقص هواؤها.

وتطلعت إليه متسلقة بعينيها هيئته الشابة.. مستويا في وقفته بحجم وطول عاديين، مفرجا فخذيه قليلا في صورة توحي بشيء من التهور، حاشرا يديه في جيبي جاكتته الكشمير الزرقاء عند مستوى الحزام، على ملامح وجهه المنمنم المريح أمارات المسالمة والانفعال...

ـ تفضل

ـ قلت لك أرغب في مقابلة الدكتور

ـ عذرا، كنت مشغولة لِحَدِّ لم أسمع قولك.. الدكتور غير

موجود.. فيما تريده؟ علّني أساعدك..

- بحاجة إلى أن يفحصني

- هذا فقط.. إنك تبدو معافى!

- نعم. هذا فقط... لكن أيضا أحسّ بارهاق وبضرورة الخلود إلى الراحة لبضعة أيام...

- هكذا إذن..! كم يوما يلزمك لترتاح؟

- أظن خمسة عشر يوما فيها الكفاية

- لا! هذا كثير، ويسبب لنا ولك متاعب ادارية وقانونية، من الأفضل أن تُعطَى أقل من عشرة أيام، كي لا تخضعك ادارتك للمراقبة الطبية، هذا أجدى.. وإذا أردت أن تجدد الاجازة بعد ذلك فاتصل بي.. قل لي الآن أين تعمل؟

- سائق شاحنة في شركة انشاء وتعمير.

- نسجل لك في الشهادة ثمانية أيام كاجازة مرضية، فما هو رأيك؟

ودون أن تسمع رأيه باشرت الكتابة في ورقة على رأسها شعار العيادة، كان قلمها يجري بمهارة وسرعة، بطريقة غالبا ما يتميز بها الموظفون الذين يمضون حياتهم الوظيفية في تكرار مستمر لصيغة نص واحد.. وانتهت من تعمير الشهادة في وقت قياسي، وسلمتها له، فنقدها خمسة دنانير. وهو يهمّ بالانصراف بسط يده لها شاكرا ومصافحا. استلمت اليد للحظة وقالت:

- حقا.. إن يدك ساخنة.! لعلّك مريض.؟

- لا تهتمي، أطرافي وجسمي كله ساخن دوما

- هذا جيّد.. امتياز.!

- لكن يدك أنت باردة

مبتسمة أجابته بالفرنسية:

- Main froide cœur chaud *

ببداهة خاطر وجرأة لم يعهدهما في نفسه قال، وهو يرى حاجبيها

---

* يدٌ باردة وقلب حارٌ

المرفوعين المشرعين في طول بشكل استفزازي على مساحة جبهتها الصغيرة خفيفة السمرة :

ـ أنا رجل حسّي، لا أقتنع بشيء إلا حين أتحسّسه، فكيف أضمن صحة قولك ؟!

لقد شَوَّشَتْ عليه احساسه مرّة واحدة وإلى الأبد، ودفعت به إلى غرابة الاطوار والحمّى. كان فرحا وغير مصدق أنها ستصحبه إلى الغرفة الفقيرة حيث يقيم، إلى الفراش مباشرة، دون مساومة ولا تمنع ولا تلكؤ ولا مداورة ولا خفر ولا تعفّف... برغبة واقبال وحرارة واخلاص ووجد لم يعرف لها مثيلا.. ! هل هذا معقول ؟؟ أتوجد امرأة في هذه البلاد على هذا القدر من الوفاء لرغبة جسدها بحيث لا تتاجر بها ولا تنصبها مكيدة لغرض دنيوي ؟!. لقد وجدت وهي عندك، ملتصقة بك، محض كيان آدمي باقتناعه العضوي الأول، ولغته الفطرية المحسوسة، واضطرابه الانفعالي الاهوج. مقبلة، عارية كما لم تتعر امرأة قط. تأخذك لينا وشراسة لتشاركك ذاتك، وتنتزعك من حضيض رجولة معزولة في انفرادها، وغلظة تعاليها وتخفيها الكثيف... موج يعقبه موج ولهاث.. وتطفو إلى السطح من جديد، إلى هلوسة وشقاء جديدين...

... إنها عاهرة من أسوإ الأنواع، ذات ثقافة حديثة خطرة ولا تستحي، تذكر لي بوقاحة غريبة الرجال الذين اعتلوها، وأحيانا تشخص لي ذلك، ببرودة ولا اكتراث مجرمين. ماذا دهاها يا ربي لتخبرني بذلك.. ؟ إنها تتبجح بالقول أنها تعتمد الوضوح والعلاقة المكشوفة بلا اضطرار للتزييف ولا التكتم الشائن، ولا أرى ضررا يلحقك من حياتي السابقة كما لا يؤذيني أبدا أن تكون لك تجربة سابقة مع النساء...

أليس لك تجربة معهن ؟؟ إذن، لننسى التجربتين معا فقد مات ما فات كما يقال... يا إلاهي ماذا أقول ؟؟ إنها تساوي نفسها بي. ! علاقاتي السابقة معهن كانت هينة واهية ضرفية بمقابل.. لكن ما بالي استمر معها أكثر من نصف عام ! ماذا يعوقني لأنفصل عنها ؟ آه، بل كيف أدفع عن نفسي هذا الشعور الذابح بالانشداد إليها حتى لا فكاك منه البتة.. وهي تقول : لو لم ألق منك حماسة وسخونة لما كنت لي رجلا لهذه المدة، ولفارقتك من الليلة الأولى...

- سأتزوجها يا امي
- اتّق الله يا بني.. إنها عاهرة. !
- أنا عاهر أيضا يا امّي
- لكنّك رجل يا بني، ولا يعهر الرجال مهما فعلوا مع النساء.

كانت أمنيتي يا أمي أن اتزوج من قريتي أو من عائلتي فتاة بكرا، لم يمسسها من قبل أنس ولا جان. وأنت تعرفين هذا. كنت أحلم أن أكون الرجل الأول والأخير الذي يدخل عليها، يدخل عليها في ليلة حافلة بالفرح والغناء والرقص، ومشهودة بالأقارب والأحباب والمهنئين. وأرفع جلوتها وأتملى حشمتها. وأتعامل مع جهالة جسدها وعشوائية حركاتها وعفوية استجابتها كمعلم.. وأتناول الشفتين اللتين لم تلمسا اللحم إلا في ثدي الأم، وامرح، والتصق بالجسم الذي لم يتعر إلا في ضباب بخار الحمام.. وأعلمها اللعب وأعلّمها الاستلقاء وأعلّمها النهوض وأعلّمها الاحترام.. كنت أتمنى أن تكون جميلة وتكون ممتلئة وناهدا وتكون عذراء وتكون متدينة وأصيلة النسب.. وأعمل يا أمي بنصيحتك عندما تقولين أن رسولنا الكريم أوصى قائلا : «تنكح المرأة لأربع : لمالها أو لجمالها أو لحسبها أو لدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك».. أنا كنت أتمنى يا أمي أن أظفر بالصفات

الاربع مجتمعة التي أوصى بها سيّدنا. . لكن هذه المرأة أهلكتني. . إنها فنانة في الفراش بشكل باهر لا أقدر معه أن أقول أو أبوح. كأنني لم أعرف قبلها مطلقا، ولم يزيّن خيالي واحدة من النساء تشبهها. فعندما ننتهي من بعضنا في كل مرة، أحس وقد أصابني سرور بالغ في العضلات، كأنني انتهيت من الاستحمام والتمسيد، وكأنني على دوح في الجنة. وأجدني مجذوبا إليها من جديد، أقبلها شاكرا ولاهجا بالنشوة والجميل، وأنا الذي لم يقبّل امرأة قط بعد الانتهاء منها.

ـ سأتزوجها يا أمي فاغفري لي. .

ـ لا تفعل يا عبّاس، فلن أغفر لك. لم تبق فيّ صحة لأتحمل فضيحتك. . بفعلك تقتلني قبل أجلي. . فارحم كبر سنّي يا بنيّ!

ـ فدتك روحي يا أماه، لا تقولي هذا. . إنك تضاعفين عذابي. . كم يشقّ عليّ التخلي عنها وكذلك عصيانك. . أمري لله أيتها الغالية، فأمام رفضك أجدني طائعا ممتثلا لك. . .

تلك الليلة سالت دموع الأم صامتة مؤلمة كثيبة، وكانت تمسحها بسرعة متجنبة أن تبدو. وما لبثت أن اعتراها النشيج، وبدأ صدرها يرتجّ ومخاطها يتتابع، فتزيله بحركات مضغوطة، حاكة بكم ثوبها. . ولم يتمالك عبّاس دموعه فبكى، وألقى راسه على صدر أمه مسترضيا مسترحما. . وغشاه النوم وهو بين أحضانها تخلل، بحنان، أصابعها المجلّدة الناعمة في شعر رأسه، وتهدهده بالتغني به وبالفتيات اللاتي يستأهلنه. . وحين عرفت بنومه مددته ووسدت رأسه وغطته واستلقت إلى جانبه كأنه ذلك الرضيع السابق في حاجة إلى من يسهر على راحته. . .

نوم المسنّات خفيف، فما أن احسّت حركة عبّاس حتى فتحت عينها، وشاهدته يرفع عنه الغطاء ويستوي واقفا دفعة واحدة، كأن

جسما مغناطيسيا حرّكه وقلب وضعه في استلقاء ممدد إلى واقف منتصب.. وعفس خارجا حافيا دون أن يحتذي صنداله الموجود على عتبة البيت.. كان أن دفع الباب بتيبّس وآلية وهو يخطو باستقامة هندسية لا بشرية فيها، مستهديا بنظرة نائمة، نظرة ثابتة زجاجية مصوّبة لا تحيد. يتقدم متماسكا، متصلبا، فولاذيا. تصدر عنه طقطقة المفاصل.. يلاحقه صوت الأم الملتاع، وهي تتعثر في مشيتها الراكضة الواهنة في محاولة ادراكه :

ـ عبّاس عبّاس.. اذكر اسم الله.. لقد سكنك الشيطان يا بنيّ.. استعذ بالله منه..

الصوت يعلو مبرحا ولا يتناهى إلى سمع الابن. والأم تخرّ جاثية منهارة في وضع سجود.. تبحث عن ريقها لترطب حنجرتها وتقول :

ـ يا إلاهي ! إنه يمشي وهو نائم.. لقد حصل الذي يخيفني، إن العظام تصفّر لبعضها.. ولا حيلة لي أمام تناديها.

يخرج الحي
من الميّت

رأسه مسند إلى راحة كفّه. مرفقه الأيمن على المخدة. جنبه وفخذه على الزربية الصغيرة البالية. ساقه اليسرى، العارية المشعّرة، على الحصير فالجبّة القمراية مشمرة عنها شبرا تحت الركبة. بحذاءه راديو كاسيت عليه مسبحة عقيق. كأس شاي ثقيل في متناول يده، برد سائله فاستحال إلى لون شكلاطي خاثر. يؤكل ليس يشرب. وتؤكل معه الذبابتان اللتان لم تتماسكا وهما الواحدة فوق الأخرى ترتعشان على

حافة الكأس فهوتا وقتلتا بهذا الشاي الموحل العكر. يأكلها مع الشفطة القادمة، ولن ينتبه للطعم القيحي وهو يمصها بأسنانه متلمظا.

يستولي عليه دائما صوت هذا الشيخ الضرير الثائر، ينزعه من الحياة الدنيا نزعا، ويصله بملكوت الله ذي الاشراق الفردوسي والنعيم الأبدي. في غمرة هذا الاستحواذ والسمو، يصبح طعم الدنيا الكريهة لا يختلف عن طعم الذباب.

يعتبر نفسه من مريديه وجنوده، ومن عشاق كلماته الجليلة المزلزلة. سعة علم. نفاذ حكمة. علوّ روح، واشتمال على فيوضات ومعارف وأسرار إلاهية. جميعها مصقولة في صوت جبّار متوعد، منذر لاعن ومبتهل.. الله الله.. جدّد السفينة يا ألله فقد عمّ الفساد.

إنك مضاء البصيرة يا شيخ. وحق الله أنك مبصر. يسبقك النور أين تلفظت وتقدمت. فلا زلّت بك قدم يا شيخ. ولا انفرط صوتك ولا خفّض.

يا ألله ما أحوجني لهذا الصوت! كيف استعيره منك يا شيخ عند اللزوم؟؟ وهو بحقك عندي يلزمني جمعة غد...
اللهم أحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي.

غدا أبسط ذات الموضوع الذي تعرضت لَهُ في خطبة هذا التسجيل. تكون خطبتي للمصلين بنفس عنوان خطبتك: «صم عن الدنيا وافطر على الموت». وأجري بينهم فتنة الموت. أبكيهم كما أبكيتني.

شفطة هائلة بذبابتين خريفيتين. غارت في ظلمة حلقه بتلمظات متتابعة مسموعة. تلمظات أو طربقات يحدثها فكا ولسانها أنثى الحمير متى هاجت تطلب الذكر. بعد أن ابتلع لعابه عديد المرّات تنخّم بقوة. جمع تنخيمة عظيمة في فمه. مدّ جذعه يبحث عن موضع يرشق فيه هذه اللكمونة المخاطية. مستو في قعدته في بهو الدار حدّد هدفه زاوية الحائط والباب الخارجي. قذفها باذلا جهدا. انطلقت من فمه مدورة

لها طشّ.. وكما الاشياء التي تقع في نفس اللحظة بصورة متسارعة مشتتة للقصد والادراك.. لقد انفتح الباب الخارجي الذي بطبيعته لا يغلق. ودلف منه أخوه عباس. دخوله توافق تماما مع اطلاق قذيفة الأخ الأكبر، سي الهادي صاحب الدار وإمام الجمعة... حال عباس دونها والهدف وجعلها تستقر على جيب بلوزته الصدري. بقي الرجلان متفاجئين ينظران إليها عالقة باللباس. ومتى بدأت تطول وتسيل معروقة بالبني أثر الشاي. أدرك الامام الموقف قائلا:

- سامحني يا أخي.. إن هذا من عمل الشيطان

- دفع الله ما كان أعظم، حصل خير يا سيدي!

- هناك السطل فيه الماء. اغسل تلك البقعة وتفضل بقربي.. لقد كنت في حالة سهو سامحني يا أخي.

- حصل خير حصل خير........ أليس في التنخيمة نجاسة؟ إنني على وضوء لصلاة المغرب. قل ألا تنقض الوضوء؟

- لست على جواب يقين.. لكن الصواب أن تعيد الوضوء دفعا للشبهات.

بقي البلل على شطر بلوزته الأيسر بعد أن نظّف آثار المخاط، وأعاد الوضوء. والساعدان المشمران يقطران اعتمد عليهم في القرفصة ثم في القعود فوق الحصيرة إلى جانب أخيه، في الموضع الذي كانت تشغله ساق الامام اليسرى، وقال:

- مالك سي الهادي، ما الذي جعلك في حالة سهو؟

- ليس سهوا، إنما ذهول! ذهول بعثه فيّ الاصغاء لهذا الشريط الجديد لشيخي عبد الحميد كشك. قد وصلني صبيحة هذا اليوم، وهو يتعرض فيه لكارثة الموت.. كم هو عالم محيط هذا الشيخ المبصر! إنه يفتش على روحي وقلبي ليذلّها ويفتنها بما يفشيه من رهبة وعزة المُحيي المميت، وعلى كياني ليدكه بسطوة عبارته ذات النفس الإلاهي.. اللّهم أقبلنا بعفوك ورضاك.. اسمع يا أخي لقد غيرت موضوع

خطبتي (متى يجوز المحرم في الاسلام) الذي أعلنته للمصلين الجمعة الفائتة إلى الموضوع الذي بسطه الشيخ. إنه بسطه بكيفيه تدفع المؤمنين إلى الاتعاظ والزهد في هذه الحياة الفانية. . الموت الموت ! مفرق الأحبة وقاطع اللذات ومخرّب البيوت العامرة، قرار رب حكيم يفصل بين حياة وحياة. . (صم عن الدنيا وافطر على الموت) واتخذ سندا لكلامي قول الشيخ :

«قال العلماء رضي الله عنهم : وينبغي لمن يزور القبور أن يكون جوعان فإن الشبع يحجب العبد عن الاعتبار بالموتى، وأن يكون غير عازم على فعل شيء من المعاصي، فإن العازم في حضرة الشياطين فلا يصح منه اعتبار، وأن يكون زاهدا في الدنيا فإن الراغب فيها لازمته قسوة القلب. ولذلك عُدِم غالب الناس الاتعاظ برؤية القبور، وربما زار أحدهم القبور ولم يحصل عنده بكاء ورقة، لان غالب الناس صاروا يجعلون ذلك وسيلة إلى الاجتماع ببعضهم بعضا، كالمواضع التي يتنزهون فيها من الانهار والبساتين. فزر يا أخي القبور وأنت متفكر فيما إليه مصيرك، كما كان السلف الصالح، وسلم عليهم وأنت حاضر القلب خاشع بقولك : السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، قاصدا بالمشيئة سرعة اللحوق بهم لأن الموت محقق لا يدخله مشيئة عادة. وإياك والمشي على قبور المسلمين بنعل أو بهيمة لا سيما إن بالت أو راثت فإن ثواب زيارتك كلها قد لا يساوي بول دابتك على مسلم واحد. فإذا وقف الزائر على قبر يزوره فليعتبر به كيف صار تحت التراب وانقطع عن الأهل والاحباب، وعدم ردّ الجواب وصار يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيعمل صالحا فلا يجاب. . .».

وانثيء الكلام عن الغرور في التشبث بالحياة، وعن حالة النزع المرعبة وعذاب القبر واليوم الذي تسودّ فيه وجوه البشر إلا من رحم ربي. . . اللّهم ظلّلنا بظلك يوم لا ظلّ إلا ظلّك. . ألا دعوت معي يا أخي ؟! مالك في ذهول ؟ عسى أن يكون كلام الشيخ فعل بك مثل ما

فعل بي ؟!.

ـ هو كذلك يا أخي . . (وأضاف عبّاس بصوت واهن محشرج تنهكه الذكرى ويخفّته الشرود) زيارة القبور !! يا ألله ! لم أزر قبرها منذ عشر سنوات يا أخي . . سبع عشرة سنة انقضت على موت المرحومة . . واظبت السنوات الاولى على زيارتها أسبوعيا. ولا أدري كيف عمّني النسيان. عشر سنوات لم أخصص زيارة لقبرها، ولم أتلُ الفاتحة على روحها.

إن قلبي أصابته القسوة يا أخي حتى عَمَى . . عجّل الله لي ملاقاة وجهه ووجهها حتى لا تفتنني الحياة أكثر وتذهب بايماني ووعدي.

ـ قلت لك يا عبّاس، مرارا، تزوج ثانية، فقد أحلّ الله لك ذلك، فلماذا تضيّق على نفسك حيث وسّع عليك ؟ تزوج يا أخي وهات لك ولدا يملأ حياتك ويرث اسمك . .

ـ لا يا سيدي ! فقد تعاهدنا ليلة الزواج، وأشهدنا الله على عهدنا، أن يكون ارتباطنا دنيا وآخرة، وإذا اختارها الله إلى جانبه، فإني باق على عهدي حتى يتوفاني وألاقيها في الجنة، ولن أنكث عهدي ولو بزواج الجازية الهلالية . . فليلهمني الله الصبر ويحقق مرغوبي في أقرب أجل . .

ـ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله . . .

ـ بمشيئة الله سأذهب لزيارتها، أكفّرُ عن غيابي بأن أقرأ لها نصيبا من القرآن . . .

في المغرب، أطلق إمام الصلوات الخمس السلام يمنة، وأطلقت جماعة المصلين السلام يمنة ويسرة، وأطلق عباس السلام وهو يستوي واقفا . صلاته هذه لم تتريّث لابتهالات وأدعية المصلين التي يختمون بها صلواتهم. صلاة قد نقصها صفاء الاستغراق والخشوع. نقص فادح لم يُصِبْهُ بمثل هذه القوة سابقا، حتى كاد ينقض الصلاة من أصلها، لولا الحركات المنسجمة مع المصلين . . . لم تكن روحه في

الصلاة كانت هناك في القبر، خافقة وجلة يخالطها احساس تأثُمٍ من هجر. . .

كانت خطوات عبّاس الساعية بهذا الجسم الريفي الاربعين ذي الملامح القاسية المغضنة، واسعة وعجولة في وطئها الثنيّة المتعرجة التي تقود للمقبرة عبر الحقول والاراضي الفلاحية المحروثة حديثا تهيؤا لمطر الخريف الاولى، بعد حصاد الصيف.

لون الثرى والطوب مثل لون سماء بعد الغروب، كلاهما بدا مغبرا متجهما مستقبلا للسواد. يشهدان بينهما في صمتهما ووحدتهما وتحولهما للظلمة، هذا الرجل الكهل، خافض الرأس وهو يغذّ السير، إلى وجهة في طرف القرية الجنوبي.

هذه الرهبة المقرونة بالسكون. سكون يمنح المكان مداه الفسيح المتباعد، سكون شامل تتحول فيه أية نأمة أو هفهفة للقش إلى صوت يقشعر له الجسم وترتعد له الفرائص فزعا. كأن هؤلاء الاموات لم يصطحبوا معهم من الدنيا إلى هذا المكان، إلا لحظة تسليم الروح بما يتم فيها من صريف الاسنان وتقلّص وشحوب وشهقة أخيرة معلقة بين حياة وفناء، تشيع كلها بين الأهل شعور الفراغ والفقدان والمباغتة من هذا الجسم الذي صار جثة باردة متشيئة ومحرمة، بشكل منته لا يمكن معالجته اطلاقا.

وخاف عباس من هذا التهديد الصامت الذي تنطوي عليه المقبرة، فبادر بصوت مرتفع تعمده كذلك ليتأنس به ويتشجع، وليبلّغه إلى كل القبور :

ـ السلام عليكم أهل القبور. . .

رجع له السلام مجمعا من أرجاء المكان الذي ليس له حدود مرسومة كأغلب مقابر القرى. فتلا عباس (سورة الفلق) وهو يمرّ وجلا محاذرا

بين القبور الترابية خشية عفس أحدها، وهي التي اندثر رَسْمُها الناتيء المكوّر بفعل الزمن. لم تكن القبور المبنية بنفس عدْد القبور الترابية، كانت متناثرة متباعدة، وبناؤها المنخفض غير متساو في احجامه، ومتفاوت في قياس شواهده المختلفة المواد.

جثا عباس خلف قبر زوجته المبني الأبيض المخضرّ، ميمما وجهه للقبلة. قرأ الفاتحة. ذراعاه على صدره وساعداه مرفوعان ماثلان في توسل. وعندما أنهاها مرر كفيه على وجهه وتنهّد. تنهيدة بزفير خلّفت في نفسه شيئا من الاطمئنان والارتياح لوحشة المكان وظلمته. ثم قام وقعد على سطح القبر، لكنه تزحزح قليلا مقتربا من الشاهدة. فقد كان قعوده الاول على حفرة من سطح القبر، هي على هيئة مشرب خزفي صغير، ركّبه هو عندما بنى القبر منذ سبع عشرة سنة، يضع فيها الماء لترتاده العصافير مترحمة على روح امرأته. كان المشرب في موقع من القبر بمثابة السرّة في الجسد.. يا للزوجة المسكينة لم تفرح بقطع سرّة ولدها. فماتت وهو في بطنها. وشرّحها أولئك الاطباء الكفرة القساة الذين لم يفعلوا شيئا في الأوان لينقذوها. أخرجوا الطفل ميتا متعفنا وسلموه له فلم يستلمه. تكفيه جثة زوجته.

كانت زوجة صالحة، حلوة المظهر، مراعية لحقوق الزوجية وتحبّه، وكان مغرما بها وولهان، فمعها عرفت حياته اللذة والغرام الدافيء والسكينة.. عام ونصف فقط من الحياة معها كفيلة بأن ينذر عمره كله حافظا فرجه من النكاح في سبيل الالتقاء بها في الآخرة كما تركته... كانت صالحة ومليحة وتخاف على صحته، وبعد الأشهر الثلاثة الأولى من الزواج نظمت حياته بطريقة لم يعتدها، صيّرته نظيفا، ورققت خشونته، وهذبت ملبوسه وطيبت رائحته. فحتى الجنس جعلته بميقات خوفا على صحته من الافراط.. ليلة الخميس فيها البركة، فقط الخميس ليلا في مثل هذه الليلة. وغدا تغتسل في الفجر بحمام عظيم يطهّرك من ذنوب الاسبوع كلها. ويقبله الله منك كما لو أنك ضحيت بكبش.

ويدا عباس تتلمسان في حنو الشاهدة الرخامية.. رقبتها كانت رخامية، بل من المرمر الأسمر، الأحرى أنها من اللحم المرمري. قلت لَكِ إن هذه الرقبة الملساء العسليّة تطيّش صوابي فاتركيني أقضمها مرة واحدة. اشفي غليلي مرة واحدة بجاه النبي.

ـ تخلَّ عن هذه الشقاوة! إبعد!! ابعد عنّي، لحيتك تَخِزُ لحمي فلا تقترب مني.. (قليل من التمنع، قليل من الغناجة، قليل من الدلال معه قليل من الغلظة البدوية المتبادلة، لاذكاء الاهتياج الكاسر وخلق الطواعية والاستعداد).

ـ إنني على استعداد لأحلقها توا لَوْ يرضيك، وغدا أعيد حلقها لصلاة الجمعة.

ـ ابق.. لا داعي لذلك الآن.. لا تتعب نفسك.. أمري لله.. ابق ابق...

ـ ... آه...

ـ هـح

ـ أححح... ح

ـ أوه

أوه، كررها عباس بصوت ثاقب مكتوم، بأعصاب مشدودة محتقنة ومرتعشة. اليدان متشبثتان تضغطان بعنف وارتجاف على الشاهدة الرخامية.. أوه، فقد كان البلل اللزج دافئا تتسع رقعته عند ملتقى فخذيه..

بكلتا يديه متحسسا البلل ذا الرائحة النفاذة. تماما مثلما قبل موتها. عندما تطعمه صباح الخميس العسل والبيض والبصل. ثم تقول ليلا في الفراش: لقد عوّمتني! ماهذا ؟! قم، تنحّ، خلّيني أمسح! فقط، هذه المرة، يحسُّ السائل يبرد على عانته والاطراف وفي سرواله، ولا يعرف بماذا يمسح وكيف ؟!

إنّ البلل يصبح شيئا فشيئا رطبا دبقا يثير الشعور المتعظ والاشمئزاز، ويدفع إلى اللسان قولا ينبيء عن تعطل في الذهن :
ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ! ماذا حصل يا ربي ؟؟!

والذي حصل قد حصل أكثر من مرة، أصبح عادة إذن، عادة يوم الخميس ليلا، فوق القبر واليدان تحتضنان الرخام وتكبسان. . فقط هي لم تعد تمسح، ساكنةُ الجنة تلتذّ وتصيبه باللذة دون عناء المسح، المسح له وحده، هكذا تقبل مشيئة الله واحتاط للأمر.

أغلب ليالي خميس السنة التي قاربت الاكتمال، وهو يأتيها، وقد توصل عبر هذه المدة إلى تكوين صلة قربى وتآلف ومجاملة بينه وبين أهل القبور، وأمسى يهدي لهم الفاتحة وبعض السور القصار من القرآن الكريم. ليكسبهم إلى جانبه أكثر، حتى أنه صار يعتقد أنهم يغادرون المقبرة عند مجيئه، حتى يفسحوا له المجال للاختلاء بزوجته، وفي أحيان كثيرة عندما يكون مناخ الطقس الليلي مشجعا على المكوث في العراء، فإنه يبقى معها إلى غد، نائما إذا تسلط عليه النوم، أو ساهرا إذا أسعفه السهر، وفي كل الاحوال فهو يغادر، عند حركة الطيور الصباحية المبكرة بخفقانها وأصواتها مع الغبش الأزرق الرمادي الذي يسبق ايلاج النهار في الليل. . .

واستفاقته هذه المرة، لم تكن على حركة الطيور، إنما على وعوعة نحيلة مجهدة مترعة بشهيق وبكاء رضيع. استفاق مفجوعا محملقا. وهمّ وافقا، بعد أن كان مستلقيا ممدا على الجانب الأيسر للقبر من الخلف. واقفا في برنسه الوَبَريّ الطويل الذي رشّه الندى جيدا فتناثرت منه قطرات الماء. مفجوعا كان ويرتعش من البرد ومما سمع. ولم تكن الرؤية تسمح له بابصار شيء. كان الليل في هجوعه الأخير ومازال ليليا. ولم تكن لديه مهلة ليفكر أكان الصوت الذي سمعه، صوت يقظة أم منام. فقد علا الصراخ ثانية شاهقا ورفيعا وقريبا

لدرجة حسبه ينطلق من تحت قدميه..

انحنى ومدّ عنقه للجانب الآخر الأمامي للقبر، وتلمس مدليا يده، فوقعت على شيء طري أهيف يختلج... مذعورا سحب يده وجلجل بلفظ أصم فراغي يحاول البسلمة... الهول صاعق يجمد النفس، ويصيب الحلق بالجفاف واللسان بلعثمة ثقيلة يستعصي معها النطق.

على ضوء لمبة الكهرباء، كان المولود صغيرا جدّا بحجم الحفنة، ومن جنس البنات. إنه ملفوف بخرقة قماش لم تكسُ كل جسمه، لحمه كان محمرا مزرقا لينا مجعّدا قليلا، به زغب. كان حيا لكنه يفغّم ولا يكاد يخرج منه صوت. أشرف البرد على إهلاكه، فحقّنه عباس من حجره ودسّه برفق وحنان تحت البرنس قريبا من صدره.

(الصلاة خير من النوم)، يكررها المؤذن مفتتحا بها نداءه لصلاة الفجر، ويطلقها في هدأة القرية، ممطوطة حازمة فيها شيء من الولولة والحثّ. الصلاة خير من النوم!! لكن عائلة سي الهادي أمام الجمعة، أخي عباس، لم تكن نائمة في هذا الوقت. استفاقوا كلهم على الهرج الذي أحدثه عباس عند عياطه بأخيه. وأصابهم الهلع حين أبصروا المولود في حضن عمّهم.

الرجلان في غرفة نوم الإمام على انفراد، وعباس يحضن المولود بين حناياه متشبثا ويقول باصرار وانفعال:

ـ إنه عطية الله لي، إنه ابني من صلبي، انجبته زوجتي.

ـ كيف ؟! كيف يا عباس ؟ إنك تهذي ! عظام زوجتك أصبحت رميما، إنها ماتت منذ سبعة عشر سنة. تمالك عقلك يا أخي !!

ـ هل هذا مستحيل أمام قدرة الله ؟! استغفر الله يا أخي، إنك إمام المسلمين فاتّق الله !.. إن الله قد مكّنني من زوجتي وهي ميتة، فكيف لا يقدر على رزقي بمولود منها ؟! إني أقول لك أنني من يوم ما أصبحت أزورها وهي تحضر. واتصل بها وانتشي وأقذف.. والله إنني أحسّها كما

كنت أحسّها في شهر العسل...

ـ اللّهم انقذنا.. إنك في ضلال يا عباس.. إن هذا المولود ابن جنّ، أو إنه لقيط رمي به بين المقابر، ، فاعده يا عباس وادفع عنك هذا الشر والبلاء.

ـ لا لا ! لن أعيده.. إنك لا تعرف ما أعرف يا أخي. إنه ابني وقد أعطاه الله لي.. وسأعلن أبوّتي له على رؤوس الملإ.

ـ ماذا ستقول لهم ؟؟! سيفضحك عليك الناس ويسفّهونك.

ـ سأقول لهم أن الله يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحيّ.. أليست هذه آية من آيات القرآن الكريم ؟ قُلْ يا إمام ؟! قُل هل تكفر بها ؟ وهل يكفر بها الناس ؟! إنه ابني يا أخي فساعدني على الناس تربح ثواب الله.

ـ نعم إنه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي.. حاشى أن أكفر بآيات الله.. لكن هذا الامر صعب التصديق ! استغفر الله العظيم !! فالهمني الصواب يا الله.

ـ قل هذا للمصلين، قل لهم إن الله يخرج الحي من الميت ! قل لهم إنه أخرج ابنة عباس من امرأته الميتة. قم بواجبك يا إمام في حق الله وفي حق المسلمين وفي حق أخيك.

ـ أمري لله لقد ورّطتني وورّطت نفسك ! كان عليك أن تزور القبور لتتعظ بالموتى لا أن تجتمع بزوجتك وتنشد معها المتعة هناك.. لقد انتهكت حرمة المقبرة وحرمة الموتى.. إنك أتيت شيئا خطيرا أسود.

ـ قدّر الله وما شاء فعل، وسأسميها (عطية).

الفهـــــرس

- جدل الحل والترحال .... ص 5
- سأتركك تتذوق هذا الطعم ص 13
- السلطـــان ص 23
- الكهل الأخضـر .... ص 31
- عبّاس يوزّع المناشيـر .... ص 37
- الفستـان الأبيض ص 47
- اسمـك جلغـم........................ ص 53
- الحافلة ذات العجلات الأربع .... ص 79
- أول الصباح الشّتائي ص 85
- « عبّاس » في حالة سيئـة .... ص 93
- اكتفي الليلة بالظلام ص 99
- العظام تصفّر لبعضها ص107
- يخرج الحي من الميت .... ص 115

الطبعـة الأولـى
السحب 1500 نسخة
الطبع أكتوبر 1986
الإيداع القانوني أكتوبر 1986
توزيع : SO . TU . GEM تونس

* حسن بن عثمان كاتب قصة قصيرة تونسي، أسلوبه من باب السهل الممتنع. في قصصه رصد للحظة بسيكولوجية يمعن في بلورتها واكتناه أعماقها، لا يهتم كثيرا بالحركة ولا «بالقفلة» المثيرة. انه من المدرسة الواقعية الحديثة...

مجلة كل العرب - باريس -
العدد الثاني والثلاثون / أفريل 1983

* حسن بن عثمان كاتب من الجيل الجديد. بدأ بالشعر ثم انتقل الى القصة. وقصصه تصوّر أوضاعا مختلفة بلغة جميلة وبصدق رائع. ورغم انه لم يصدر أية مجموعة الى حد هذا الوقت فإنه يعتبر من أهم قصّاصي الموجة الجديدة.

حسونة المصباحي
مجلة الدستور - لندن
جويلية 1985

* بن عثمان جعل القصة صيغة استفهام كبرى، هجوما على العالم بالسؤال تلو السؤال، زجًّا باللغة في المناطق الأكثر بردا ورعبا في الانسان والواقع...

محمد الغزّي
جريدة الصباح - تونس

دار الرياح الأربع للنشر

الثمن: 2,000 د. ت.